# محاضرات

# حول الإيمان بالقضاء والقدر

ألقاها

الإمام العارف المفسّر المحدّث

الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

جمع وتقديم

وَلَدِهِ الدكتور المهندس

محمد مُحيي الدين سراج الدين

اعتنى بتخريج أحاديثها وضبط ألفاظها

خادم العلم الشريف

د . بكري بريمو السمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم
هب ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام الحافظ المفسّر الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى والده العارف الكبير
حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة الشيخ
محمد نجيب سراج الدين الحسيني
رضي الله عنهما
وجزاك الله خيراً

الموقع الرسمي للشيخ الإمام
على شبكة المعلومات
www.srajalden.com

# كلمة شكر وتقدير

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

( لا يشكر الله من لا يشكر الناس ) [1]

تحقيقاً لنصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة في إسناد المعروف إلى أهله ، وشكرهم على إتقانهم عملهم ، فإني أتقدم بالشكر والثناء لمن كانت له يد بيضاء وجهد خفي - منذ سنوات - في إظهار ما صدر من الكتب المتعلقة بما نُقل عن الشيخ الإمام رضي الله عنه من بيانات ونصوص ودروس ومحاضرات - وما سيصدر إن شاء الله تعالى - ، وإخراجِها بهذه الحلّة النافعة الزاهرة ، ، تجلّى ذلك خاصة في ضبط الألفاظ من حيث اللغة ، والتوسع في تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وضبط ألفاظها ، فلم يَكْتَفِ بالموسوعات الإلكترونية وشبكة المعلومات الدولية ( الإنترنت ) ، بل رجع في توثيق ذلك إلى المكتبات العالمية كمكتبة الإسكندرية والمكتبة الوقفية وغيرها ، والمخطوطات الموجودة فيها ، وكذا ما وجد عند كبار أهل العلم من كتب بطبعات قديمة كالطبعات البولاقية والميمنية وغيرها

إن الذي قام بذلك هو :

خادم العلم الشريف الأخ الأستاذ بكري بريمو السمان بن المرحوم الحاج محمد ناجي وفقه الله تعالى لما فيه رضاه ، وبارك في نفعه المتواصل في التربية والتعليم .

وقد حصل الأستاذ بكري على ثانوية التعليم الشرعي الخاصة ، وتخرّج من معهد التعليم الشرعي ( الشعبانية ) بحلب بتفوق باهر سنة ١٤٢٠ هـ إلى جانب حصوله على الثانوية السورية العامة .

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب البر والصلة وصحّحه ، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

كما نال الإجازة العالية ( الليسانس ) في الحديث النبوي الشريف من جامعة الأزهر سنة ١٤٢٥ هـ
ثم حاز على الدبلوم الدولي المعتمد من الاتحاد العالمي للبرمجة اللغوية المعروف بـ ( NLP ) سنة ١٤٣١ هـ
ونال شهادة الدراسات العليا ( الماجستير ) في علوم اللغة العربية وآدابها سنة ١٤٣٢ هـ ثم شهادة الدكتوراه سنة ١٤٣٥ هـ
و له خبرة عملية في تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية منذ سنة ١٤١٧ هـ ، لأن الله تعالى فَطَره على حب العلم تعلّماً وتعليماً منذ سني طلبه الأولى ، ولا يزال يقوم بالتدريس في الكلّيات العامة والخاصة .
وفقه الله تعالى لما فيه رضاه .

موقعه على شبكة المعلومات :

**www.ostazbakri.com**

**ostazbakri@gmail.com**

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد :

فهذه جملة محاضرات ألقاها فضيلة الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه في جامع بانقوسا الذي كان يدرّس فيه كل يوم جمعة بعد صلاة العصر ، وهذه المحاضرات تتعلق بموضوع القضاء والقدر الذي هو ركن من أركان الإيمان ، لا يقبل الله إيمان المؤمن إذا لم يعتقد به .. بدليل الحديث المشهور الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه أن سيدنا جبريل عليه السلام - الذي تمثّل بصورة رجل - سأل سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم : فأخبرني عن الإيمان

فقال صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخِر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه ، قال : صدقت .. [٢]

في حين أن بعض الناس يجهل معنى هذا الركن الإيماني العظيم ويغفل عن أهميته ، بل وربما يتهم القدر بالظلم وينسب إليه ارتكابه للمعاصي وتراخيه عن فعل الطاعات ، ويتعلل بكلمات خطيرة ربما تندرج تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم :

[ وإن العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم ] [٣] ، وفي رواية : [ يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه ] [٤]

وقد أجاد سيدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه وأفاد في كلامه عن القضاء والقدر فذكر أطرافاً من هذا البحث في كتبه :

[ الإيمان بالملائكة ] و [ حول تفسير سورة الملك ] و[ حول تفسير سورة الإنسان ] ..

[٢] في كتاب الإيمان
[٣] انظر المسند ٨٠٥٩ و صحيح البخاري كتاب الرقاق
[٤] كما في الموطأ كتاب الجامع

وفصّل الكلام هنا مبيناً بأسلوبه السهل الجامع أهمية حسن الاعتقاد بهذا الركن الإيماني العظيم ، ووجوب الإيمان بعلم الله تعالى السابق على وجود الأشياء ، وكتابته سبحانه لها ، وأنه سبحانه حكيم عادل لا يظلم أحداً ..

ثم بيّن رضي الله عنه أن قضاء الله تعالى وقدره لا يسلب الإنسان مشيئته واختياره بدليل أن الله تعالى أثبتهما للإنسان بقوله جل وعلا :

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } ..

وقد ثبت الاختيار للإنسان شرعاً وعقلاً وذوقاً ووجداناً وفطرة ، فأنّى له الإنكار بعد هذا ؟!!

ونوّه شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى أن القضاء والقدر ليسا بحجة للعبد على فعله المعاصي والذنوب لأن الكتابة السابقة لا تمنع العبد اختياره ولا تسلبه إرادته ، وقد ثبتت له جميع صفاته على الحقيقة ، فلا يصح له أن ينكر صفة الاختيار فيه ، وإلا لزمه أن ينكر سائر صفاته أيضاً ، وهذا ما لا يقول به عاقل ، وهذه الشبهة : ( العبد لا اختيار له مطلقاً )

هي شبهة الكافرين كما أخبر عنهم سبحانه بقوله :

{ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ}

فردّ عليهم جل وعلا بقوله : { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ } .

ويوم القيامة عندما تحقّ الحقائق يحمد جميع الناس ربهم ، فيحمده المؤمنون لفضله ورحمته سبحانه ، ويحمده الكافرون لعدله جل وعلا .

قال تعالى : { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

أي : وقال كل قائل من أهل الموقف : الحمد لله رب العالمين

وهناك بعض الناس يتمسكون - أثناء حديثهم عن القضاء والقدر - يتمسكون بفهمهم الخاطئ لقول النبي صلى الله عليه وسلم :

[ فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ] [٥].

علماً أنه جاء في حديث آخر عند الإمام البخاري ومسلم جاء قوله صلى الله عليه وسلم :

[إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ] [٦] يعني : أن عمله رياء وسمعة ، وهذا من شعب النفاق ، فزال الإشكال وانجلى الحق ، والحمد لله على ذلك ، لأن روايات الحديث يفسر بعضها بعضاً ، فالروايات يكون اختلافها أحياناً بسبب اختلاف فهم الصحابة رضي الله عنهم ، وإن اختلاف مفاهيم الصحابة لكلام النبي صلى الله عليه وسلم هو حجة يعتدّ بها ، وإن ما أجمله صلى الله عليه وسلم في حديث فصّله في حديث آخر حسب ما تقتضيه الحكمة والمناسبة .

وقد أشار الشيخ الإمام رضي الله عنه إلى أن سبب خروج البعض عن الحق والعدل إنما هو بسبب إعمالهم العقل في مسألة القضاء والقدر ، وأنى للعقل البشري أن يحيط علماً بأسرار وحِكم أفعال الله تعالى ؟!!

لذلك يجب على العاقل أن يعتقد أن القضاء يتعلق بجميع أموره وحركاته وسكناته ، لا بأفعال الطاعة والمعصية فقط .

وجزى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم معلّم الناس الخير جزاه الله كل خير فهو الذي كفانا مؤونة إعمال العقل في القضاء والقدر ، فقال :

[ إذا ذُكِر القدر فأمسِكوا ] [٧] .

---

[٥] انظر صحيح مسلم كتاب القدر و سنن ابن ماجه في المقدمة واللفظ له

[٦] انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[٧] رواه الطبراني في المعجم الكبير والحارث في مسنده والبيهقي في القضاء والقدر وحكم الحافظ ابن حجر في الفتح بأن سنده حسن

ونفى صاحب جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم نفى شبهة عدم اختيار العبد فقال :[ اعملوا فكل مُيَسَّر لما خُلِق له ][8]

فهو ميسّر وليس مكرهاً ولا مضطراً .

فجزى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عنّا كل خير .

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل المبارك منار هدي ونفع لكل من يقرؤه إلى يوم القيامة ، وأن يجعل ثواب ذلك مكتوباً في صحيفة سيدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه ، وكتاب أعماله الواسع ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله العظيم وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومحبيه وعلينا معهم أجمعين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم وكما يحبه مولانا ويرضاه ، آمين والحمد لله رب العالمين

**وَكَتَبَهُ**

**د . م . محمد محيي الدين سراج الدين**

---

[8] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

## المحاضرة الأولى : حول الإيمان بالقضاء والقدر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

إن البحث في القضاء والقدر يشتمل على أمور عدة

أوّلها : الإيمان بالقدر

وثانيها : الإيمان بعلمه سبحانه بالأشياء قبل وجودها وقبل أن يخلقها ،

ثم الإيمان بأنه جل وعلا كتب الأشياء قبل خلقها ، وهذه الكتابة على مراتب ، ثم الإيمان بمشيئته وإرادته وحكمته سبحانه ، وأنه تصرّف في العالم بحكمته وعدله ، وأنه سبحانه لم يَظلم أحداً في قضائه وقدره .

ثم الإيمان بأن القضاء والقدر لا يسلب اختيار الإنسان ، وليس القضاء والقدر حجة للإنسان العاصي على ربه ، وإليك تفصيل هذا :

**أولاً : الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان :**

إن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الاعتقادية القلبية ، التي من أنكر واحدة منها فهو خارج من الملّة ، وقد جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما قال للنبي صلى الله عليه وسلم : فأخبرني عن الإيمان

جاء قوله صلى الله عليه وسلم :[ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ] [٩]

---

[٩] تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ ثلاث مِن أصل الإيمان :

الكفّ عمن قال : لا إله إلا الله ، ولا نكفّره بذنب ، ولا نخرجه من الإسلام بعمل ]

ثم قال صلى الله عليه وسلم : [ والإيمان بالأقدار ] [١٠]

ومن جملة الإيمان بالقضاء والقدر :

أن لا يحاكم الإنسان قضايا القدر إلى عقله دون أن يستند إلى دليل شرعي ، وإن هو فعل ذلك وحاكم قضايا القدر إلى نظريات عقله فقد يخرج عن الحق والعدل ..

وقد أشارت إلى هذا جملة من الأحاديث النبوية الشريفة . منها :

[ إذا ذكر القدر فأمسكوا ] [١١] ، أي لا تتركوا مجالاً للأحكام العقلية أو النظريات الفكرية أن تجري في قضاء الله تعالى وقدره ، لأن الإنسان مهما بحث وعرف فإن علم الله تعالى أعظم ، وحكمته سبحانه أجلّ وأعلى ، والعقل عاجز عن إدراك ما هنالك من الحكم والأسرار الإلهية في خلقه .

**تعريف القضاء والقدر :**

القضاء هو : حكم الله تعالى على الأشياء السابق على وجودها ، المطابق لعلمه الأزلي سبحانه .

والقدر هو : تنفيذ ما حكم به سبحانه

---

[١٠] انظر سنن أبي داود كتاب الجهاد والسنن الكبرى للبيهقي ومسند أبي يعلى الموصلي وسنن سعيد بن منصور

[١١] تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب

**ثانياً :**

إن الإيمان بالقضاء والقدر يرتكز على الإيمان بعلمه سبحانه السابق على الأشياء ، وذلك أن يعتقد الإنسان أن جميع الأشياء والحركات والسّكَنات والأقوال والأفعال والخواطر كلها معلومة عند الله تعالى في أزل الآزال بالعلم القديم الذي لا أول له ، وهو العلم الذاتي الملازم للذات الإلهية التي لا أول لها ولا آخر .

واعلم أن هذا الأمر شرعي وفطري وعقلي قال تعالى :{ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}

أي : إن خالق الشيء أعلم بالشيء ، ولولا أن علمه سبحانه بالشيء سابق على وجود الشيء لَمَا صدر هذا الشيء .

وقد بيّن سبحانه أن علمه بقلوب المؤمنين المستعدة للإيمان ، بيّن جل وعلا أن علمه بذلك قديم لا أول له ، وأنه سبحانه عالم - بالعلم القديم الأزلي - بالقلوب غير المستعدة للإيمان ، وفي هذا قال سبحانه في الصحابة رضي الله عنهم ومن كان متّبعاً لهم :

{ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }

وكلمة التقوى هي : [لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

وهي التي جمعت مراتب التقوى كلها ، وبها الوقاية من عذاب الله تعالى ، ومن كل شدة وكرب .

وقد بيّن سبحانه لماذا ألزمهم بها وجعلها ملازمة لهم فقال جل وعلا :

{ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا } أي أنهم كانوا في علم الله القديم هم أحق بها من غيرهم وهم أهلها { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }أي : كان ولا يزال عالماً بكل شيء .

وقال سبحانه في الكفار :{ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ } أي : لأسمعهم القرآن سماع فهم وقبول وإجابة

{ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } فهو سبحانه عليم [١٢] بالقلوب المستعدة وغير المستعدة ، والقلوب القابلة وغير القابلة ، وهو سبحانه حكيم يضع الشيء في موضعه اللائق به ، وقد تصرّف بخلقه بعلمه وحكمته ومشيئته سبحانه ، ولا مستكره له ولا حاكم عليه ، ولا معقّب لحكمه سبحانه وتعالى .

واعلم أن الحكيم لا يُنتقد ولا يُعترض عليه ، فلا تظنن بالله سوءاً ، فإن الحكمة حكمته ، وسر الحكمة هو أعلم بها ، ومن أيقن بذلك وأن الله هو الحكم العدل ، استسلم لأمره سبحانه ، أما من كان شاكّاً مرتاباً في ربوبية الله تعالى فشأنه الاعتراض والانتقاد ، والعياذ بالله تعالى .

وإليك مثالاً يحملك على الاستسلام لأمر الله تعالى لأنه رب العالمين وأحكم الحاكمين :

إنك عندما تثق بحكمة الطبيب ، وأنه طبيب عالمي ماهر ، تراك تذهب إليه وتسلم نفسك بين يديه ، وتثق بما يصفه لك من علاج ، وربما غيّب فكرك وشقّ بطنك وأنت مستسلم له لأنك تعتقد أنه حكيم يضع الدواء موضع الداء ، ولكنك أيها الإنسان لم تطّلع على أسرار حكمة هذا الطبيب ومدى علمه ، كما أنك لم تطّلع على تركيب الدواء الذي يصفه لك .

فإن ثقتك بحكمته جعلتك تستسلم له بالسمع والطاعة دون انتقاد أو اعتراض ، ومن هنا ـ ولله المثل الأعلى ـ فإنك إذا آمنت بالله تعالى حقاً وأيقنت أن الله تعالى حقاً هو الحكم العدل ، فلا تظنن سوءاً في قضائه وقدره ، وإنما يجب عليك الاستسلام لذلك ، وأن تعلم وتؤمن أن حكمته سبحانه أجلّ وأعلى ، وأن هناك أحكاماً ، ووراء هذه الأحكام حِكم ، وأن للحكم أسراراً ، والأسرار من غوامض الأمور ، ولا يمكن أن تطّلع عليها أيها الإنسان لأنك ما بلغت مرتبة الربوبية حتى تحيط علماً بحكمة أسرار رب العالمين جل وعلا .

[١٢] ومِن عِلْمه سبحانه : أنه عالم بما كان وما هو كائن إلى يوم الدين ، وأنه سبحانه يعلم ما لا يكون كيف يكون لو كان ، وفي هذا يقول سبحانه في الكفار عندما يدخلون النار ويطلبون الرجوع إلى الدنيا :{ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه }..

ولهذا لما جاء رجل إلى سيدنا علي رضي الله عنه فقال :

أخبرني عن القدر ؟ قال له : طريق مظلم فلا تسلكه ، فأعاد السؤال - أي : جاء يريد أن يفهم سر الله تعالى في القدر - فقال له : بحر عميق فلا تَلِجْهُ ، فأعاد السؤال فقال : سر الله في الأرض قد خفي عليك فلا تفتّشه [١٣] ..

أي : لا تكلف نفسك ذلك ، فأنت وأمثالك لا تحيطون علماً بذلك ، ولكن هناك يوم ترتفع فيه الحجب ، وتنكشف فيه الدقائق ، وتظهر الحقائق ،

وهو يوم القيامة الذي تقول فيه الخلائق كلها { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .

فالمؤمنون قالوا : الحمد لله رب العالمين ، والكفار في جهنم اعترفوا بذنوبهم وأيقنوا بحكمة ربهم فيهم فقالوا : الحمد لله رب العالمين ، وفي هذا يقول سبحانه : { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } أي : بين الخلائق وأصنافهم .

{ بِالْحَقِّ وَقِيلَ } أي وقال كل مخلوق { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

**ثالثاً :**

إن الإيمان بالقدر يكون بأن الله تعالى كتب جميع المقادير على مقتضى علمه سبحانه ، وهذه الكتابة على مراتب :

فهناك كتابة سابقة على خلق السموات والأرض ، وهناك كتابة بعد خلق السموات والأرض وقبل خلق آدم عليه السلام ، وهناك كتابة عند خلق كل إنسان وهو في رحم أمه ، وهناك كتابة سنوية ، واعلم أن كل كتابة لاحقة إنما هي تابعة للكتابة السابقة ، وتخصيص وتفصيل لها ، وجميع الكتابات إنما هي تخصيص وتفصيل من الكتاب العام الجامع .

ومن هذا ما ورد في سنن أبي داود والترمذي أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال لابنه - عندما كان في مرض الوفاة - : ( يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ) - أي : ما نالك من خير وبِرّ إنما هو لك - ( وما أخطأك ) أي : لم ينلك ولم تحصل عليه

---

[١٣] انظر تاريخ دمشق لابن عساكر وفيض القدير للمناوي ومرقاة المفاتيح للقاري وتحفة الأحوذي للمباركفوري

( لم يكن ليصيبك ) أي أنه ليس لك ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : [ إن أول ما خلق الله القلمُ [١٤] - بضم الميم - فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟

قال : ( اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ) .

وفي رواية : قال سبحانه : ( اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد ) ، يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[ من مات على غير هذا فليس مِنِّي ] [١٥]

وقد يتوهم بعض الناس :

أنه ما الفائدة من العمل إذا كان الأمر مقضياً ومكتوباً ؟!

فيقال له : أليس من المكتوب والمقضيّ والمقدّر أن تعمل ؟

وأنك تعمل باختيارك وإرادتك ؟

ولو قال : أنا لا أعمل ، فهذا كلام منه ، لأنه يدعي أن القضاء والقدر مسلّط على أمر السعادة والشقاء فقط ، فأبطل العمل لأنه مفروغ منه .

فيقال له : وهل القضاء والقدر مسلّط على أعمال التكليف فقط ؟

أم أنه عام ويتعلق بجميع حركاتك وسكناتك ومأكلك ومشربك وسعيك ؟

نعم لا شكّ أنه عام يتعلق بأعمال التكليف وغيرها .

فإذا كنت تبطل العمل في أسباب السعادة لأن السعادة والشقاء من المكتوبات والمقدّرات ، فيجب عليك أن تبطل السعي في أسباب رزقك لأن رزقك من المقدّرات أيضاً ، ثم يجب عليك أن تمكث في بيتك ولا تأكل ولا تشرب ، لأن أكلك وشربك من المقدرات والمقضيّات أيضاً .

---

[١٤] أي : أن القلم هو أول المخلوقات ، وهذه الأولية نسبية

[١٥] سنن أبي داود كتاب السنة وسنن الترمذي كتاب القدر

وكذلك يجب عليك أن لا تتنفس ، لأن أجلك وحياتك من جملة المقضيّات، فما فائدة الأكل والشرب على زعمك ؟

لأن الأجل من المقدّرات أيضاً .

وعلى هذا فيجب أن تعطّل وجودك ، بل وجود الكائنات بأجمعها ، وهذا محض الجنون ، ولكي تدفع عنك أيها الإنسان هذه الوساوس والشبهات الباطلة يجب أن تعلم يقيناً أن تقدير الله تعالى لأهل السعادة وكتابته لأعمالهم لم يجبرهم على أعمال السعادة ، وإنما فعلوا ذلك باختيارهم وإرادتهم .

فقد كتب سبحانه أن فلاناً وفلاناً من أهل السعادة ، وكتب أنهم سيعملون عمل أهل السعادة باختيارهم وإرادتهم ومشيئتهم ، وكذلك أهل الشقاء فإن كتابة الله تعالى لهم ذلك لم تجبرهم على فعل المعاصي والفجور ، وإنما فعلوا ذلك باختيارهم وإرادتهم ، فقد كتب سبحانه أن فلاناً وفلاناً من أهل الشقاء ، وكتب أنهم سيعملون عمل أهل الشقاء باختيارهم وإرادتهم ومشيئتهم ، فليس أهل السعادة مجبرين على عمل أهل السعادة ، بل هذا باختيارهم ومشيئتهم ، وليس أهل الشقاء مجبرين على عمل أهل الشقاء ، بل هو باختيارهم وإرادتهم .

وهذا معنى قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

[ اعملوا فكل مُيَسَّر لما خُلِق له ][١٦] ولم يقل : فكلّ مُكرَه أو مضطرّ .

[١٦] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن ، وصحيح مسلم كتاب القدر عن علي رضي الله عنه

**ثبوت صفة الاختيار عند الإنسان شرعاً :**

لقد أناط الشارع المسؤولية والتكليف على وجود الاختيار ، وإذا فُقد الاختيار فلا مسؤولية ولا حساب ، فلو فرضنا أن رجلين تكلما بكلمة الكفر ، الأول تكلم بها باختياره ومشيئته فيقال عنه : لقد كفر .

وأما الثاني فتكلم بها لأن هناك رجلاً رفع السيف فوقه وأجبره على كلمة الكفر فتكلم بها مكرَهاً مضطراً ، لكن قلبه مطمئن بالإيمان ، فلا مسؤولية عليه ، وهو مؤمن ، وفي هذا يقول سبحانه :

{ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا }

أي : قالها باختياره وشرح صدر منه { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ } ...الآية ، فلو كان القدر يسلب اختيار الإنسان لم يكن مسؤولاً في ذلك ، لأن الشارع لا يسألك أو يحاسبك عما لا اختيار لك فيه ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ }

وهذا التحريم حالة الاختيار ، أما عند الإكراه والاضطرار فقد قال سبحانه :{ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ }

فالمسؤولية والعقوبات منوطة على وجود الاختيار ، وحيث لا اختيار فلا مسؤولية ، كمن اضطر في الصحراء لأكل الميتة ليدفع عنه الموت وهكذا .

**ثبوت الاختيار عند الإنسان ذوقاً ووجداناً :**

قد يكون إنسان جالس في مجلس وغلبه العطاس فلا يتضايق أهل المجلس منه لأنهم يعلمون أن ذلك ليس باختياره ، وكذلك التثاؤب أو ارتعاش الجسم فلا اختيار للإنسان فيه ، وقد يعطس الإنسان في صلاته ويظهر منه صوت قوي فلا تفسد صلاته ، لأن العطاس لا اختيار له فيه ، ولو صدر منه هذا الصوت باختياره لفسدت صلاته ، ومن هنا تجد أن هناك أموراً يثبت الإنسان اختياره فيها ، وهناك أمور لا اختيار له فيها ، وهو يفرّق بين هذه وتلك ، فهو يذهب إلى دكانه باختياره ، لكنه يعطس بدون اختيار منه ، وعلى هذا فالإنسان من ذوقه ووجدانه يفرّق بين العمل الاضطراري والعمل الاختياري .

**شبهة ضالة :**

قد يزعم بعض الجهال أن القدر يسلبهم الاختيار في أعمال الطاعات ، فلو قيل لأحدهم : قم إلى الصلاة ، لقال : حتى يقدّر الله لي ، أو حتى يريد الله ، ولو نهيت رجلاً منهم عن شرب الخمر لقال :

هذا كتبه الله علي ولم يقدّر لي تركه بعد ...

وغير ذلك من الضلالات .

وترى هؤلاء إذا أصبح الصباح نهضوا إلى أعمالهم وتجاراتهم بكل نشاط ولم يقعدوا ويقولوا : حتى يقدّر الله أو حتى يريد الله ، فتراهم في أمور الدنيا والملاهي يضعون القدر وراء ظهرهم ولا يبالون به ، ولما يُطلب منهم فعل الخيرات والطاعات يضعون القدر أمامهم حاجزاً مانعاً .

قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ }

مرادهم : أن هؤلاء جماعة قدّر الله عليهم الفقر أفنحن نطعمهم ؟!

وما هذا إلا جهل وكفر بالقضاء والقدر .

ولو كان القضاء والقدر حجة للعبد على فعله المنكرات والمعاصي لاحتج به أهل النار من الكفار والفجار ، ولاعتبروه مبرّراً لأفعالهم ، ولكنهم قالوا كما أخبر سبحانه عنهم فقال جل وعلا :

{ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ }

أي أنهم أقرّوا واعترفوا بذنبهم وهو أنهم كانوا لا يسمعون كلام الرسل ولا يلتفتون إلى ما جاؤوا به ، بل أعرضوا ولم يتعقّلوا في آيات الله الكونية ، وفيما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من البيّنات .

فهذا هو ذنبهم الذي حتّم عليهم دخول النار ، ولم يقولوا : إنهم أُجبروا على الكفر والفسوق ، بل إنهم اعترفوا وأقرّوا أنهم دخلوا النار بعدل الله تعالى ، ولم يظلمهم سبحانه بقضائه وقدره ، فقالوا كما أخبر سبحانه عنهم :

{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ }

أي : فاعترفوا أنهم دخلوا النار بالحق ، وإن العدل من صفات الكمال ، ويُحمد العادل في أحكامه على عدله ، ولذلك لما قضى سبحانه بين الخلائق بالعدل والحق جعل كل مخلوق يحمده ، قال سبحانه :

{ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

أي : قال كل قائل في ذلك الموقف - وهو موقف فصل القضاء - قال : الحمد لله رب العالمين ، وفي ذلك الموقف العظيم الذي يفتح الله تعالى فيه لعباده باب المجادلة والاعتذار والإدلاء بالحجة ترى أن الكفار والعصاة لم يذكر أحد منهم عذراً بأن قضاء الله تعالى وقدره أجبره على الكفر أو فعل المعصية ، ولو كان ذلك عذراً لهم لاحتجّوا به في ذلك الموقف ،

ولكن الموقف موقف تحقّ فيه الحقائق وتظهر الدقائق ، فلم يسعهم إلا الاعتراف بأنهم هم الذين كفروا وأجرموا باختيارهم ومشيئتهم ، ولم يسلبهم القضاء اختيارهم ، ولم يجبرهم على فعل المعاصي .

وكما أثبت سبحانه للكفار أعمالاً حتّمت عليهم دخول النار ،

فقال سبحانه : { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

وقال جل وعلا : { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ }

فقد أثبت سبحانه للمؤمنين أعمالاً دخلوا الجنة بسببها ، فقال تعالى :

{ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

أي : أنتم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فصرتم أهلاً لفضل الله عليكم بالجنة ، ولو كان قضاء الله يجبرهم على الإيمان وفعل الصالحات لما أثبت لهم سبحانه عملاً ، لأنه ما وجه تفضيلهم على غيرهم عندئذ ؟

وهو سبحانه يزيد أهل الإيمان من فضله كلّ على حسب إيمانه وتقواه كما قال تعالى : { وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ }

وقال جل وعلا : { لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ }

**ثبوت الاختيار عند الإنسان عقلاً :**

لو أن إنساناً كان يمشي في طريق ، وهبّت الرياح بشدة وحرّكت الغبار والرمال حتى أصابه منها في وجهه ولَحِقه الضرر ، فتراه لا يتأثر ولايغضب ، لأنه يعلم أن ذلك بسبب الرياح ، ثم يتابع سيره ، أما إذا رماه إنسان بحجر من أعلى السطح فتراه يتأثر ويغضب ، ويريد الانتقام ممن ضربه .

ومن هنا تعلم أن الإنسان بعقله يفرّق بين صدمة الحجر بفعل الرياح وأن الحجر لا اختيار له بضربه ، وبين فعل البشر الذي رماه بالحجر ، لأنه رماه باختياره فغضب وتأثّر ، ولم يقل : إن هذا الذي رماني مقدّر عليه ومُكرَه على ذلك ، ولم يقل : إن هذا البشر كالحجر الذي أصابني بفعل الرياح ، فالعقل يثبت أن هناك اختياراً وهناك اضطراراً ، فلا تعترض أيها الإنسان على الله تعالى بقدره .

قال سبحانه : { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ }

وإن من جملة ما قضاه سبحانه وقدّره : أن تعمل باختيارك وإرادتك .

روى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال :
خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال :

أتدرون ما هذان الكتابان ؟

فقلنا : لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا ، فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم [١٧] فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، ثم قال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً .

[١٧] قال في تحفة الاحوذي :
( ثم أجمل على آخرهم )
من قولهم : أجمل الحساب إذا تمّم وردّ التفصيل إلى الإجمال ، وأثبت في آخر الورقة مجموع ذلك وجملته . اهـ

فقال أصحابه : فَفِيمَ العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : سَدِّدوا وقارِبوا ، فإن صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة وإن عَمِل أيّ عمل - أي باختياره ومشيئته -

وإن صاحب النار يُختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل - أي باختياره ومشيئته -

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه فنبذهما [18]، ثم قال :

فَرَغَ ربكم من العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير [19]

أما الكتابان اللذان خرج بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما في يديه فهما من عالم الغيب المطلق الذي لا تحده الحدود كعالم الشهادة المقيد .

وقد تمثّلت الأسماء الغيبية بكتابين محسوسين رآهما الصحابة بيدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وهذا التمثل يرجع إلى عالم المثال [20] الذي هو أوسع العوالم ، ويتسع لعالم الأرواح وعالم الأشباح وكل شيء ، وإن لكل شيء من الماديات والمعنويات والمحسوسات وجوداً في عالم المثال

---

[18] قال في تحفة الأحوذي : ( ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه )
أي أشار بهما ، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال فتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده ، أي أخذ ، وقال برجله أي مشى
( فنبذهما )
أي طرح ما فيهما من الكتابين ، وفي الأزهار : الضمير في نبذهما لليدين لأن نبذ الكتابين بعيد من دأبه .
قال القاري : وفيه أن نبذهما ليس بطريق الإهانة ، بل إشارة إلى أنه نبذهما إلى عالم الغيب .

[19] المسند ٦٢٧٥ وسنن الترمذي كتاب القدر

[20] انظر تفصيل البحث حول ذلك في كتاب :
[ هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان ]
للشيخ الإمام رضي الله عنه

ومن ذلك : تمثّل تلاوة القرآن الكريم والكلم الطيب ، فعن خالد بن أبي عمران قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا جُنّتكم - أي : ما يستركم ويقيكم - ، قالوا : يا رسول الله ، مِن عدو حضر ؟

قال : لا ، بل من النار ، قلنا : ما جُنّتنا من النار ؟

قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدّمات ومعقّبات ومجنّبات ، وهن الباقيات الصالحات "] [٢١]

ومعنى : [ مقدمات ] أي لقائلهن

[ معقّبات ومجنّبات ] : أي تمشي أمام وخلف قائلها يوم القيامة لتحفظه من الأهوال والشدائد .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [ اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ] [٢٢]

ومن مراتب الكتابة ما جاء في الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف] [٢٣]

---

[٢١] انظر سنن النسائي الكبرى ومصنف ابن أبي شيبة وشعب الإيمان للبيهقي والمعجم الأوسط للطبراني .

[٢٢] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ،

[٢٣] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم:[ جفّ القلم على علم الله تعالى ][24] - أي : أنه سبحانه كتب جميع ما يتعلق بأمور الخلائق وتفاصيلها وما سيجري عليها إلى يوم القيامة .

وجاء في رواية المسند أنه صلى الله عليه وسلم قال :

[ يا غليم [25] ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟

فقلت : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم :

احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وقد جفّ القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإذا أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً ] [26] .

وقوله صلى الله عليه وسلم :[ احفظ الله يحفظك ] أي إذا نسيته نسيك ، أي : تركك ، ومعنى :[ احفظ الله ] اي : لا تغفل عن الله تعالى لساناً وعملاً وقلباً ، فإذا نسيته - أي : نسيت أوامره - نسيك أي : تركك في العذاب

كما قال تعالى : { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } أي : تركهم .

وإنه سبحانه لا ينسى شيئاً من علمه ، كما قال سبحانه مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام : { لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى }

وقوله صلى الله عليه وسلم :[ احفظ الله تجده تجاهك ] أي : أمامك ، أي : تجد نور الله تعالى وتجلياته وعنايته أمامك ، لأنك دوماً تراقبه ، ومَن لازَمَ مراقبة الله تعالى فإنه يرتقي إلى مقام المشاهدة القلبية .

---

[24] سنن الترمذي كتاب الإيمان

[25] صيغة التصغير هنا للملاطفة والمؤانسة .

[26] المسند ٢٦٦٦ وانظر المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي ومسند عبد بن حميد

وهذا من المواجيد القلبية كما قال سبحانه : { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا }

وقال سبحانه : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا }

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة :

[ أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ ][٢٧] .

ومن مراتب الكتابة : ما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[ كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ] [٢٨] .

وهناك كتابة بعد خلق السموات والأرض قبل خلق آدم عليه السلام ، وهي فيما يتعلق ببني آدم عليه السلام ، وهناك كتابة خاصة بكل إنسان عندما يكون في رحم أمه وبعد أن يمضي عليه أربعة أشهر ، وكل كتابة لاحقة إنما هي تفصيل وتخصيص لكتابة سابقة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

---

[٢٧] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .

[٢٨] صحيح مسلم كتاب القدر .

بسم الله الرحمن الرحيم

## المحاضرة الثانية

## حول الكتابة السابقة لمقادير الأشياء

## ثبوت صفة الاختيار في الإنسان

## الحكمة في كتابة الملائكة لأعمال بني آدم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

قال الله تعالى :

{ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ }

وإن أعظم وأجمع بيّنات صدقه صلى الله عليه وسلم إنما هو هذا القرآن الجامع للعلوم كلها والمتضمن لذكر العوالم كلها .

ومن جملة أسرار القرآن الكريم وعلومه الباطنة : العلم بالأقسام الإلهية في القرآن الكريم ، ومن ذلك : قوله سبحانه :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ }

فلقد أقسم سبحانه بـ{ ن } وبـ { وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } أي : وما يسطره الساطرون ويكتبه الملائكة العالون ، وتكتبه ملائكة الله تعالى في العوالم كلها ، أقسم سبحانه بهذه المُقسَمات على أمر عظيم وهو قوله جل وعلا :

{ مَا أَنْتَ } يا رسول الله { بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } وذلك لأن المشركين اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون لمّا أخبرهم عن الآخرة والحشر والنشر ، ولمّا كانوا يرون المعجزات يقولون عنه : ساحر ، ولمّا كان صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم نصوص كلام الله تعالى الذي فيه البلاغة والفصاحة كانوا يقولون عنه : شاعر ، ولما كان يخبرهم عن بعض المغيّبات كانوا يقولون عنه : كاهن ، وإن أقوالهم هذه متناقضة ، فكيف

يكون شاعراً وكيف يكون مجنوناً ؟ ـ حاشاه صلى الله عليه وسلم من كل وصف لا يليق به ـ ، فالشاعر لابد له من شعور وعقل !!

ولقد جاء صلى الله عليه وسلم بأمور عجز السحرة عن الإتيان بمثلها أو نقضها .

فما كلامهم المتناقض إلا دليل على كذبهم وافترائهم ، ولقد ردّ سبحانه في كثير من الآيات الكريمة على افترائهم وأباطيلهم ، ونفى عنه صلى الله عليه وسلم ما اتهمه المشركون ، وبيّن صدق نبوته ورسالته ، وأثبت له صلى الله عليه وسلم كمال العقل ، فأقسم سبحانه بمقسمات كبرى على أمر كبير وهو أن عقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو العقل الأكبر ، وهو العقل الأرجح ، وهو العقل الأول ، وأنه ليس فوق عقله صلى الله عليه وسلم عقل ، بل عقله صلى الله عليه وسلم فوق جميع العقول .

أما معنى { ن } فهو : مدد الله الفياض [٢٩]الذي أفاض العلوم على القلم الأول وهو القلم الذي قال سبحانه له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟

قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد [٣٠] .

وتطلق {ن} في لغة العرب على الدواة التي يوضع فيها الحبر الذي هو مداد القلم ، فلما ذكر سبحانه { ن} وقابله بـ { القلم } ولابد للقلم من مدد ، دل ذلك على أن المراد بـ {ن}مدد الله الفياض على القلم الأول .

{ وَمَا يَسْطُرُونَ } أي : الملائكة الساطرون وما يكتبونه بأمر من الله تعالى وتعليم منه سبحانه ، فإن الله جل وعلا الذي أفاض العلوم على القلم فصار القلم يجري بكتابة المقادير ، وأفاض على الملائكة فصاروا يسطرون ويكتبون ، هو سبحانه الذي أفاض عليك العلوم والمعارف يا رسول الله ، وهذا هو وجه المناسبة بين القَسَم والمُقسَم عليه .

---

[٢٩] روى ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : أول ما خلق الله القلم ، ثم خلق النون ، وهي الدواة ، وذلك في قول الله عز وجل : ( ن والقلم وما يسطرون ) ورواه الحكيم الترمذي والخطيب عن علي رضي الله عنه مرفوعاً

[٣٠] تقدم تخريجه ص ١٤

وإن هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم الذي أفاض الله تعالى عليه العلوم وأنزل عليه النبوة والرسالة العامة ، وعلّمه أساليب الدعوة وأنواع الحكمة ، وأنزل عليه القرآن الكريم كيف يتصور في حقه صلى الله عليه وسلم الجنون ؟!!

فإن هذه العلوم والمعارف والنبوة والرسالة تحتاج إلى عقل كامل راجح فوق مستوى جميع العقول ، بل إنه صلى الله عليه وسلم صاحب العقل الأعظم والعقل الأكمل وهذا مفهوم قوله سبحانه :

{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ }

إذ ليس المراد نفي الجنون عنه فقط ، ولكن المراد إثبات العقل الأعظم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن كمال عقله صلى الله عليه وسلم وفوقيّة عقله الشريف على سائر العقول أمر ظاهر في علومه ومعارفه صلى الله عليه وسلم ورسالته العامة التي جاء بها ، ونقل الناس من حالة الجهل إلى حالة العلم ، وطوّرهم ورفع مستواهم الإنساني بالهدى الذي جاء به صلى الله عليه وسلم .

وقد ظهر ذلك أيضاً في أساليب دعوته صلى الله عليه وسلم ، فإن الناس متفاوتون في العقل والفكر وتقبّل الدليل والبرهان ، فقد جاء صلى الله عليه وسلم بأساليب من الدعوة تناسب جميع طبقات البشر وتقيم الحجة عليهم ، ولا تدع لأحد منهم مجالاً للشك والارتياب .

{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } أي : ما أنت بسبب نعمة الله عليك بالنبوة والرسالة والقرآن الذي نزّله عليك والعلوم التي أفاضها عليك والأحاديث التي أوحاها إليك والتي فيها الحكمة العالية ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، بل لا يَتصور هذا إلا مجنون ، فإن العلوم والمعارف لابد لها من عقل راجح ، وإن النبوة والرسالة لابد لها من عقل كامل ، ولمّا كانت نبوته صلى الله عليه وسلم أعظم النبوات ، ورسالته أجمع الرسالات ، كان عقله صلى الله عليه وسلم أعظم العقول وأكملها ، ولو نسبت العقول البشرية من جميع

الأمم إلى عقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما كانت إلا كحبة رمل في رمال الدنيا ، وفي هذا نقل المحدثون عن وهب بن منبه قوله :

قرأت في سبعين كتاباً - أي : ما بين كتاب سماوي وكتاب من كلام الرسل والأنبياء السابقين - أن جميع ما أعطي الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ما هو إلا كحبة رمل وقعت من جميع رمل الدنيا ] [٣١]

قوله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } أما { ن } فهو مدد الله الفياض الذي أفاضه على القلم الأول الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه :

يابني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

[ إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟

قال : ( اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد )

وفي رواية : قال جل وعلا : ( اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة )

يا بني إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

من مات على غير هذا فليس مني ] [٣٢]

أي : من مات ولم يعتقد بكتابة القلم لمقادير الأشياء كلها إلى يوم القيامة ، ولم يعتقد بأن هناك قضاء من الله تعالى سابقاً فقد مات على الكفر والعياذ بالله تعالى .

واعلم أن إيمانك بالقدر لا ينافي أن لك اختياراً في الأعمال ، فقد كتب سبحانه وقدّر بأنك ستعمل باختيار منك وإرادة ومشيئة منك ، ورتّب سبحانه المؤاخذة والحساب على أفعالك وأقوالك التي هي باختيارك وإرادتك

---

[٣١] انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر .
[٣٢] تقدم تخريجه

، وقد بيّن سبحانه أنه لو صدر منك فعل لا اختيار لك فيه بل كنت مضطراً إليه بحكم الضرورة - وهي الضرورة المؤدية للهلاك - فلا مؤاخذة ولا مسؤولية عليك حينئذ - [33]وفي هذا يقول سبحانه: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ } - وهذا في حالة الاختيار - { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } أي : لأنه لا اختيار له في ذلك ، فالجزاء والحساب مترتب على اختيارك وإرادتك ، ولو سُلبت الاختيار وصرت مضطراً مكرهاً فلا مسؤولية ولا مؤاخذة عليك ، وفي هذا إثبات شرعي لصفة الاختيار في الإنسان .

فترى الإنسان يميز بين أمور يقوم بها باختياره ومشيئته ، وبين أمور لا اختيار له فيها ، كالعطاس والتثاؤب والرعشة ونحو هذا ، ولا مؤاخذة ولا مسؤولية عليه إلا في أفعاله وأقواله الصادرة عنه باختياره وإرادته .

ولو عطس في صلاته عشرين مرة وبصوت مرتفع لَمَا فسدت صلاته ، لأنه لا اختيار له في العطاس ، أما لو صاح أو تكلم بكلمة من كلام الناس وهو في صلاته لفسدت صلاته لأنه فعل ذلك باختياره ومشيئته .

كما أن صفة الاختيار في الإنسان ثابتة بموجب العقل ، فلو كنت ماشياً في طريقك ومد إنسان عصاه إلى رأسك وأزاح عمامتك لغضبت منه ، ورحت تنتقم منه لأنك تعلم أنه فعل ذلك باختياره وإرادته ، أما لو أصاب رأسك غصن شجرة وانزاحت عمامتك لما غضبت ، لأنك تعلم أن هذه الشجرة لا اختيار لها ولا إرادة ، فالإنسان بموجب عقله يثبت صفة الاختيار ويرتب المسؤولية على الأعمال الاختيارية التي تصدر من بني الإنسان .

---

[33] الضرورة هي : الحاجة الشديدة الملجئة إلى ارتكاب محظور شرعي ، وعرّفها أبو بكر الجصّاص الحنفي بأنها : خوف الضرر بترك الأكل إما على نفسه أو على عضو من أعضائه . اهـ . أحكام القرآن ١ / ٣٢٦
وقال ابن قدامة :
أجمع العلماء على تحريم الميتة حال الاختيار ، وعلى إباحة الأكل منها في الاضطرار وكذلك سائر المحرمات . اهـ . المغني ٤٠٢/٢١
وانظر تفاصيل البحث في أحكام الضرورة في كتب أصول الفقه

ولو كنت تاجراً وعرضت عليك بضاعة بسعر معين ، وجاء رجل آخر وعرضها عليك بسعر أقل ، فإنك تختار الأقل ، وعلى هذا فإنك بنفسك تثبت أن لك اختياراً وإرادة ومشيئة .

**رد على شبهة ضالة :**

قد يزعم جاهل أنه مسيّر ، ولا اختيار له في أفعاله وأقواله ، مستدلاً بزعمه أن صفة الاختيار فيه هي بخلق الله تعالى ، وما دام اختياره مخلوقاً فلا اختيار له ، فيقال في الرد على ذلك : إن الله تعالى أوجدك بعد عدم ، وخلق فيك الحياة وأودع فيك السمع والبصر والحواس والمدارك وسائر الصفات التي متّعك الله تعالى بها ، ومن جملتها : صفة الاختيار ، ولو أنكرت صفة الاختيار فيك لأنها بخلق الله تعالى فيلزم من هذا أن تنكر سائر صفاتك لأنها بخلق الله تعالى أيضاً ، ويقال لك : هل أنت موجود أم معدوم لا وجود لك ؟ فإن قلت : إن وجودي وهمي ، فيقال :

ما الفرق بين وجودك الآن وبين وجودك قبل مائة سنة مثلاً ؟

فأنت موجود حقاً ، والذي أوجدك هو الله تعالى ، ووجودك وجود حقيقي ، ويقال لهذا المشتبِه أيضاً : هل أنت حي أم لا ؟

فيقول : نعم ، فنقول : وهل حياتك حقيقية أم وهمية ؟

فيقول : حقيقية ،

ومن أنكر أنه حي فيقال له : ما الفرق بينك وبين الميت ؟

وهل حياتك ذاتية من نفسك أم أن الله تعالى خلق فيك الحياة ؟

فيقول : إن الله تعالى خلق فيّ الحياة ، وحياتي حقيقية ليست وهمية ، وهي بخلق الله تعالى .

ويقال له : هل أنت سميع أم لا ؟

فيقول : نعم أنا سميع ، فنقول : وهل سمعك حقيقي أم وهمي ؟

فيقول : أنا سميع على الحقيقة .

ومن أنكر أنه سميع فيقال له : ما الفرق بينك وبين الأصم ؟

وهل صفة السمع فيك بخلق الله تعالى أم أنت سميع من ذاتك ؟

فيقول : نعم ، إن صفة السمع عندي هي بخلق الله تعالى وأنا سميع على الحقيقة

وهذا كما قال سبحانه : { فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }

ويقال له أيضاً : هل أنت بصير أم لا ؟

فيقول : نعم أنا بصير وبصري حقيقي

وإن الله هو الذي خلق فيك صفة البصر

ومن أنكر أنه بصير فيقال له : ما الفرق بينك وبين الأعمى ؟

ثم يقال له : هل أنت مختار وفيك صفة الاختيار والإرادة أم أنك مجبر على أعمالك وأقوالك ؟

فلا يسعك إنكار ذلك لأنك تعمل وتأكل وتشرب وتغدو وتروح باختيارك وإرادتك ، وإن الله تعالى هو الذي خلق فيك صفة الاختيار والإرادة ، وأنت مختار ولك إرادة حقيقية - وليست وهمية - وهي بخلق الله تعالى .

وإذا أنكرت صفة الاختيار فيك ، وادعيت أنها ليست حقيقية لأنها بخلق الله تعالى فيجب عليك أن تنكر جميع الصفات المخلوقة فيك كالسمع والبصر والحياة ، لأنها كلها بخلق الله تعالى ، وهي صفات حقيقية فيك لا يسعك إنكارها كما تقدم ، فأنت سميع على الحقيقة ، بصير على الحقيقة ، حي على الحقيقة ، مختار على الحقيقة ، وموجود على الحقيقة ، فالاختيار صفة من صفاتك التي خلقها الله تعالى فيك ، فإذا أنكرت الاختيار يلزم منك أن تنكر جميع صفاتك ، وهذا محض الجنون .

قوله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } : وهذا القلم هو القلم الأول الذي قال الله تعالى له : اكتب القدر ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد .

ومن جملة ما كتب سبحانه : أعمالك وأقوالك ، وأنك ستفعلها باختيارك ومشيئتك ، وقال سبحانه : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }

أي : لقد كتب الله تعالى الأمور كلها قبل أن يَبْرَأ البرية ، حتى المصائب والآفات التي تعتري الإنسان .

قوله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ }

أي : وما تسطره الملائكة وتكتبه عن أمر من الله تعالى .

واعلم أن كتابة الأمور والمقادير كانت على مراتب ، وكل كتابة لاحقة إنما هي تفصيل لكتابة سابقة وتخصيص لها ، فهناك تخصيص بعد تعميم ، وتفصيل بعد إجمال ، فالكتابة الأولى هي التي كتبها القلم الأول قبل خلق الخلق ، ومن جملة هذه الكتابات ما جاء في صحيح الإمام مسلم عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ـ قال : وعرشه على الماء ـ ] [٣٤]

وهناك كتابة ثانية وهي بعد أن خلق الله العرش على الماء .

فهذه الكتابة متقدمة على خلق السموات والأرض متأخرة على خلق العرش وهناك كتابة ثالثة دل عليها الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما قال :

[ دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال صلى الله عليه وسلم :[ اقبلوا البشرى يا بني تميم ]

قالوا : قد بشّرتنا فأعطنا ـ مرتين ـ أي : بشّرهم صلى الله عليه وسلم بالثواب والأجر في الآخرة فلم يرضوا بذلك فقط ، بل أرادوا العاجلة

---

[٣٤] في كتاب القدر

وطلبوا المال - وفي رواية : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣٥] - ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال :

اقبلوا البشرى يا أهل اليمن

- أي : اقبلوا البشرى مني بأجركم عند الله –

إذ لم يقبلها بنو تميم ، فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله .

قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر - وفي رواية قالوا : جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟

- أي : عن بدء العالم هل هو قديم أم مخلوق بعد عدم ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

كان الله ولم يكن شيء غيره

- وفي رواية : ولم يكن شيء قبله [٣٦] -

وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ][٣٧] .... الحديث

وهناك كتابة لأعمال الإنسان حين يكون جنيناً في بطن أمه

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق :

إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد - وهذه كتابة خاصة بكل إنسان يكتبها الملك ويسطرها بأمر من الله تعالى ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ( وعمله ) : أي باختيار الإنسان ومشيئته -

---

[٣٥] صحيح البخاري كتاب المغازي

[٣٦] صحيح البخاري كتاب التوحيد

[٣٧] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها [38] ].

وجاء في حديث آخر :

إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة [39]

قوله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ }

أي : ما تسطره الملائكة من أعمال بني آدم بعد فعلها ووقوعها ، فهناك ملائكة تكتب عليك أقوالك وأعمالك وأحوالك وكل ما صدر منك .

وفي هذا يقول سبحانه :

{ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ }

أي : كل عمل صغير صدر من العباد ، وكل عمل كبير صدر منهم أيضاً إنما هو مسطّر على صاحبه في صحيفته .

وفي هذا يقول سبحانه :

{ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }

أي : هل يظن الناس أن الله تعالى لا يسمع سرهم ونجواهم ولا يطّلع على ما أخفته صدورهم ؟!

{بلى } فهو سبحانه يسمع ويرى ، ولا فرق عنده بين السر والعلانية ، كما قال تعالى :

{ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ }

---

[38] انظره في صحيح مسلم كتاب القدر بهذا اللفظ وفي صحيح البخاري كتاب القدر

[39] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب القدر

أي : بارز بالنهار ، فالكل على حدّ واحد عنده سبحانه وتعالى ، فيرى الكل ويسمع الكل .

قوله تعالى :{ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } وهم رسل الله الملائكة الموكلون بكتابة جميع ما يصدر عنهم .

ويقول جل وعلا :

{ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ }

فقد أخبر سبحانه عن الملائكة الكرام الكَتَبَة الذين يكتبون عليك أعمالك وأقوالك وكل ما صدر منك ، ومن أنكر هذا ولم يعتقد بكتابة الملائكة لأعماله وأقواله فقد كفر وخرج عن الملّة - والعياذ بالله تعالى - لأن هذا ثابت بنص القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فهناك الملائكة المصاحبون لك لا يفارقونك ليلاً ولا نهاراً ويكتبون جميع ما يصدر عنك من أعمال وأقوال ، وإن كانوا يتباعدون عنك في حالة كشف العورة إلا أنهم مطلعون عليك .

**الحكمة في كتابة الملائكة لأعمالك وأقوالك :**

اعلم أن الله تعالى هو عليم بأفعالك وأقوالك وأحوالك ، وهو لا ينسى أعمالك وإنما وكّل عليك ملائكة تكتب أفعالك وأقوالك ، وأخبرك سبحانه بذلك لحِكم : وهي أن تعلم أن عليك رقباء موكلين من جانب الله سبحانه ، فهم يراقبون أعمالك وأقوالك فاحترز وتهيّب لذلك ، وفي هذا يقول سبحانه :

{ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}

فموقف العبد تجاه الملكين موقف المُلقي والمُملي ، وموقف الملكين موقف المتلقيَيْن والمستمليَيْن عنه ، فليتق الله في إملائه عليهما .

وكلّ من هذين الملكين رقيب أي : مراقب لأفعالك وأقوالك ، ولا يغفل أو يسهو عنك أبداً ، كما أنه عتيد أي : حاضر العتاد بقلم وصحيفة حى إذا صدر منك شيء تلقّاه وسطّره في صحيفتك .

ومن جملة الحكم في كتابة أعمالك وأقوالك : أنه إذا كانت أعمالك صالحة وأقوالك طيبة رفع الله كتابك إلى عليين وأثنى عليك بين المقربين ، وإذا كانت أعمالك سيئة كان كتابك في سجين .

وفي هذا يقول جل وعلا : { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ }

ولم يقل سبحانه : لفي مكان عال بل قال : { لَفِي عِلِّيِّينَ } مبالغة في العلو والرفعة أي : في أعلى ما يكون ، أي : في الملأ الأعلى

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ } أي : أن أمره ومقامه كبير عظيم ، ثم إن المقربين في الملأ الأعلى من الأنبياء والمرسلين والملائكة العالية وأرواح الأولياء والصديقين يشهدون كتابك الصالح ويثنون عليك كما قال سبحانه :

{ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ } .

أما إذا كان كتابك فسقاً وفجوراً وشراً وفساداً فهو في سجين في أسفل سافلين ـ نسأل الله تعالى العافية ـ فاتق الله في كتابك أيها الإنسان ، واعلم أنك المُملي ، والملائكة مستَمْلون عنك ، وأنك المؤلّف ، والملائكة يكتبون ،

وأنك المصنّف والملائكة يجمعون ، فاعرف ماذا تؤلّف وماذا تصنّف ، واعلم أن كتابك الذي ألّفته في الدنيا معروض على خلق الله تعالى ، إما على المقربين إن كان فيه أعمال صالحة ، وإما في سجين إن كان فيه أعمال سيئة ، ثم إذا جاء يوم القيامة أخرج الله لك كتابك الذي ألّفته في الدنيا ، وأمرك بقراءته على رؤوس الأشهاد والخلائق ، كما قال تعالى :

{ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }

فينظر هذا القارئ الذي عمل هذا الكتاب فيراه منشوراً مفتوحاً أمامه ، ويرى أعماله كلها مسطورة فيه ، فعندما يقرؤه يرى أعماله الصغيرة والكبيرة ، ثم ينظر في نفسه فيرى أثر العمل ظاهراً عليه ، فإن كان خيراً كان أثره نورانياً ، وإن كان شراً كان أثره ظلمانياً ، فالعمل مسطور في الكتاب وأثره ظاهر عليه فكيف ينكر ؟!

إذاً حقاً كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ...

فمن كان كتابه خيراً أخذ كتابه بيمينه وقرأه على الناس وافتخر به ، ولهذا قال تعالى :

{ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ} أي : لجماعته { هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ } أي : خذوا اقرؤوا كتابيه مفتخراً به ، و[ ها ] اسم فعل أمر بمعنى : خذ { إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ } أي : إني كنت موقناً بالحساب والآخرة { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قطوفها دانية }.

وأما من كان كتابه شراً وفساداً فيأخذه بشماله ويندم على نفسه ويتحسر ويقول كما أخبر سبحانه عنه :

{ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ }الآيات .

وعلى هذا فقد وكّل الله تعالى ملائكة ببني آدم ، وأطلعهم على أعمالهم فراحوا يكتبونها عليهم ، فليحذر الإنسان أن يكون في كتابه شيء لا يرضى

الله تعالى به ، وإن صدر منه سيئة وسُطّرت عليه فعليه بمحوها وإزالتها من كتابه ، وذلك بالتوبة النصوح ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

[ التائب من الذنب كمن لا ذنب له ] [٤٠]

فالتوبة تمحو السيئة من الكتاب الذي سُطِّر عليك ، وتمحو أثر السيئة الظلماني من التائب ، ومن تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه ومحا أثر ذنبه من صحيفته ومن نفسه ، فليكن حال المؤمن مع الله تعالى حال التائب إليه على الدوام ، وأن لا يبرح من مقام التوبة .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من التائبين المُنِيبين ، ونسأله سبحانه التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

[٤٠] انظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد والسنن الكبرى للبيهقي والمعجم الكبير للطبراني ، وقال عنه الحافظ السخاوي في المقاصد :
ورجاله ثقات، بل حسّنه شيخنا يعني لشواهده .

بسم الله الرحمن الرحيم

**المحاضرة الثالثة :**

**حول بيان أن الكتابة السابقة لا تسلب الإنسان اختياره**

**كتاب القضاء ـ كتاب الإحصاء**

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

قال تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ }

افتتح سبحانه هذه السورة بحرف واحد ، وجيء به على طريق القسم ، قال تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } أما المراد بـ{ن} فيُعلم من مقابلة {ن } بـ{ القلم } ، ولابد للقلم من مدد ، وهذا يدل على أن مدد هذا القلم هو {ن} و{ن} هو مدد الله تعالى الفياض ، ويقال في اللغة العربية عن الدواة التي يوضع فيها الحبر الذي هو مدد الأقلام يقال عنها : [ ن ] ، فلما قابل سبحانه {ن} بـ{ القلم } دل على أن {ن} هو مدد الله تعالى الفياض على القلم .

أما القلم فهو القلم الأول الذي أمره الله تعالى أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلقد استمدّ القلم العلم من مدد الله تعالى وفيضِ الله عليه .

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا القلم الأول بقوله :

[ إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد ][٤١]

وفي رواية : [ فاكتب ما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ][٤٢]

وفي رواية : [ اكتب ما يكون إلى يوم القيامة [٤٣] ]

---

[٤١] تقدم تخريجه

[٤٢] المسند ٢١٦٤٩

فكتب القلم ما سيكون إلى يوم القيامة ، وأنى لهذا القلم أن يعرف ذلك ؟

نعم لقد استمدّ هذه العلوم من مدد الله سبحانه ، وأفاض الله عليه العلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وهذا يدل على أن هذا القلم ليس جماداً أو خشباً ، إنما هو عالم كبير من عوالم الله المخلوقة ، ولهذا قال سبحانه له : اكتب

قال : رب وماذا أكتب ؟

قال جل وعلا : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد

فهذا دليل على أن هذا القلم ناطق يعقل عن الله تعالى ويستمد من فيض الله سبحانه .

قوله تعالى : { وَمَا يَسْطُرُونَ }

أي : وما يسطره الساطرون ويكتبه الكاتبون من الملائكة بأمر الله تعالى .

وقد كانت الكتابة على مراتب :

فهناك الكتابة الأولى الجامعة وهي قوله سبحانه للقلم :

[ فاكتب ما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ] [٤٤]

أما ما وراء يوم القيامة وما هنالك فهذا يحتاج إلى أمر آخر من رب العالمين ، وبعد الكتابة الأولى جاءت كتابات أخرى خاصة ، وكل كتابة لاحقة إنما هي تفصيل لكتابة سابقة متقدمة ، وهي تخصيص بعد تعميم ، وتفصيل بعد إجمال ، ومن ذلك : كتابة الأمور بعد خلق العرش وقبل خلق السموات والأرض كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

[ كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء ][٤٥]

---

[٤٣] انظره في كتاب العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني
[٤٤] تقدم تخريجه
[٤٥] تقدم تخريجه

وهناك كتابة بعد خلق السموات والأرض ، وكل كتابة مخصّصة لما قبلها ومفصّلة لها ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[ ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ] [٤٦]

أي : كل شيء مما يتعلق بالسموات والأرض .

وهناك كتابة أخص من ذلك وهي : كتابة السعداء والأشقياء من بني آدم ، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : أتدرون ما هذا الكتابان ؟ فقلنا : لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا ، فقال صلى الله عليه وسلم للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، ثم قال للذي في شماله : هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً .

فقال أصحابه : ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه فنبذهما ثم قال :

[ فرغ ربكم من العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير ] [٤٧]

وهذان الكتابان من عالم الغيب تمثلا بصورة كتابين محسوسين ، فرآهما الصحابة رضي الله عنهم في يدي النبي صلى الله عليه وسلم بدليل أنه صلى الله عليه وسلم نبذهما أي طرحهما فغابا أي : رجعا إلى عالم الغيب .

---

[٤٦] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

[٤٧] المسند ٦٢٧٥ وسنن الترمذي كتاب القدر

فهما ليسا من جنس الكتب المعروفة ، إذ أي كتاب يتّسع لجميع أسماء أهل الجنة أو أسماء أهل النار ؟!!

قوله صلى الله عليه وسلم :[ ثم أجمل على آخرهم ] أي : أحصي عددهم وجمع وختم عليه ، فلا زيادة ولا نقص عليهما .

وقوله صلى الله عليه وسلم :[ سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمِل أي عمَل ] أي : إن كان من أهل الجنة فلابد أن ينتهي أمره إلى عمل أهل الجنة باختياره ومشيئته وإرادته ، ويعمل عمل أهل الجنة فيكون من أهلها .

أما الذي هو من أهل النار فلابد أن يعمل بعمل أهل النار باختياره وإرادته ومشيئته فيختم له بعمل أهل النار فيكون من أهل النار ، وهذا يعني أن عمل السعيد بالسعادة غير مُكره عليه ، بل إن السعيد عمل بأسباب السعادة باختياره ومشيئته وإرادته ، فلا تفهم أن الكتابة السابقة تسلب اختيار الإنسان أو أنها تنافي العمل ، فإن الكتابة سطّرت عمل الإنسان مع اختياره لذلك العمل .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا الكتاب الخاص بالسعداء والأشقياء في الحديث المتفق عليه عن سيدنا علي رضي الله عنه قال :

كنا في جنازة ببقيع الغرقد فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة - أي عصا قصيرة - فنكس - أي أطرق رأسه - فجعل ينكت بمخصرته - وهذا شأن المفكّر - ثم قال : [ ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ]

وفي رواية : فقال صلى الله عليه وسلم :

[ ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة

قالوا : يا رسول الله أفلا نتَّكل على كتابنا وندَع العمل ؟

قال صلى الله عليه وسلم : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ :

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى }[٤٨] .

قوله تعالى :{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى } أي : أعطى ما أوجبه الله تعالى عليه { وَاتَّقَى } أي : اتقى الله سبحانه فيما أمر ونهى { وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } أي بـ لا إله إلا الله { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى }أي : الجنة { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } أي بـ لا إله إلا الله { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } أي : النار .

وقد أشكل على بعض الصحابة رضي الله عنهم فهم هذا الحديث ، فبيّن لهم صلى الله عليه وسلم فقال : [ اعملوا فكل ميسّر لما خلق له ][٤٩]

يعني : أن الكتابة السابقة لأعمالك لا تنفي اختيارك اللاحق ، ولا تنافي عملك اللاحق ، فإن الكتابة السابقة بأنك سوف تعمل كذا وكذا باختيارك ومشيئتك وإرادتك وميولك وهوى نفسك ، وكل هذا مكتوب ، فلما أتيت إلى الدنيا لابد أن تعمل باختيارك .

وإن في قوله صلى الله عليه وسلم :[ اعملوا فكل ميسر لما خلق له ]

بياناً للإنسان أنه مخير ومسير ، فهو مسيّر في حين أنه مخيّر ، ومخيّر في حين أنه مسيّر ، وقد عبّر عن هذا صلى الله عليه وسلم بقوله :[ ميسَّر ]. ومعنى : [ ميسّر ] أي : هو ليس بمكره ، وليس مسلوب الاختيار في أعماله بل إنه يعمل بتيسير من الله تعالى وإرادة منه - أي من العبد - .

ولم يقل صلى الله عليه وسلم :[ اعملوا فكل مُكرَه أو مضطر لما خلق له ].

بل إنما هو ميسر ، وهذا دليل الاختيار والمشيئة في العمل ، فهو يعمل العمل بتيسير من الله تعالى واختيار وإرادة منه - أي من العبد - ،

---

[٤٨] صحيح البخاري كتاب الجنائز وكتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب القدر
[٤٩] تقدم تخريجه

وكل هذا بقضاء من الله تعالى ، فهو مخيّر في حين أنه مسيّر ، ومسيّر في حين أنه مخيّر ، وإن تسييره من جانب القضاء لا يسلب اختياره ، بدليل أنه إذا ساقه القضاء لعمل ولم يكن له اختيار فيه ، بل كان مكرهاً على عمله فلا مسؤولية ولا مؤاخذة عليه عندئذ ، وفي هذا يقول سبحانه :

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ } أي إلى تناول أحد هذه المحرمات بأن دفعته الضرورة - وهي الضرورة المؤدية للموت - {غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ }أما إذا ساقك القضاء إلى عمل أنت تختاره ، كأن أكل الإنسان لحم الخنزير باختياره وإرادته ، ولا ضرورة تحمله على ذلك ، فقد وقعت عليه المسؤولية والمؤاخذة لأنه فعل هذا باختياره وإرادته .

فإن قيل : إن هذا بقضاء الله تعالى ، وذاك المضطر أكل بقضاء الله أيضاً فيقال : نعم ، ولكن الأول بقضاء الله تعالى واختيار منه ، أما المضطر فقد أكل المحرّم بقضاء الله تعالى ولا اختيار له في ذلك ، لأن الضرورة سلبته الاختيار فلا مسؤولية عليه ، ومن هنا تفهم أن قضاء الله سبحانه السابق عليك لا يُكرهك ولا يُجبرك على فعل الأشياء ، وإنما تفعلها باختيارك ومشيئتك ، وإن كانت مشيئتك وإرادتك بقضاء الله سبحانه أيضاً ، ثم إن الإنسان الجاهل يظن أن القضاء منوط ومعلق بأمور الطاعات فقط ، بحيث لو قيل له : قم إلى الصلاة ، لقال : حتى يريد ويشاء الله ، ونحو هذا من كلام فيه اتهام لله تعالى في قضائه بالظلم ، وإذا قال له قرينه الإنسي : هيا بنا إلى أماكن اللهو والفساد ، لقام ومضى معه ولم يقل : حتى يريد الله ، ولم يجعل القضاء حاجباً و مانعاً له عن فعله ومخالفته وعصيانه ، بل جعل القضاء مانعاً له عن فعل الطاعات فقط ، وما هذا إلا تناقض منه وجهل منه في دين الله تعالى ، واتهام منه لقضاء الله بالظلم ولكن الله تعالى منزّه عن الظلم وعن إرادة الظلم جل وعلا ، قال سبحانه :{ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } أي : لا في قضائه ولا في حسابه ولا في عقابه سبحانه ،

وقال جل وعلا :{ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ } فقد قدر الله عليك أموراً وقضاها ، ولابد أن تفعلها ولكن باختيار منك وإرادة ومشيئة ومحبة وميول وهوى ، فإذا عمل الإنسان عملاً لا اختيار له فيه فلا مسؤولية عليه .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : [ اعملوا ]- أي لابد من العمل - [ فكل ميسّر ] - ولم يقل : مُكرَه - [ لما خُلِق له ] أي : من شقاء أو سعادة .

فبيّن صلى الله عليه وسلم موقف الإنسان مع القضاء والقدر بأنه ميسر ، وليس بمكره أو مضطر على أعماله تجاه القضاء والقدر ، إنما هناك اختيار وإرادة ، بحيث لو اضطر إلى فعل بعض المحرمات وسلبته الضرورة الاختيار فلا إثم عليه كما تقدم بيانه ، ثم إن قوله صلى الله عليه وسلم لمّا سأله بعض الصحابة : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ أي : نترك العمل فإن السعيد منا مكتوب سعيداً فلمَ يعمل بأسباب السعادة ؟ وكذا الشقي فلمَ يعمل إن كان مكتوباً شقياً ؟ وما هي فائدة العمل ؟

فقال عليه الصلاة والسلام :[ اعملوا ] - أي لا تتوهموا وتظنوا أن الحساب والجزاء مرتّب يوم القيامة على القضاء السابق ، وإنما هو مرتّب على أعمالكم .

وقال سبحانه في أهل الجنة : { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ولم يقل : بما قضيت لكم وقدّرت ، وقال سبحانه في أهل النار أيضاً : { هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ولم يقل : بما قضيت عليكم وقدّرت ، ومن هذا يتبين لك أن الحجة والمسؤولية والجزاء يوم القيامة إنما هو على العمل لا على موجب القضاء المجرّد والكتابة السابقة ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : [ اعملوا ] ليبين أن الجزاء والحساب مرتّب على أعمالكم .

وينبغي على الإنسان أن يعلم أن هناك كتابين عظيمين هما :

كتاب القضاء وكتاب الإحصاء ، أما كتاب القضاء فهو الذي جمع جميع القضايا والمقادير ، وفيه بيان كل شيء إلى يوم القيامة ، وهو الكتاب السابق بما سيجري وبما سيكون من عمل مع اختيار أو عمل باضطرار ، وكل ذلك مسطور في ذلك الكتاب ، أما كتاب الإحصاء فهو كتاب جامع لجميع أفعال العباد التي عملوها في الحياة الدنيا مما هو خير أو شر ، وإن الجزاء والمؤاخذة يوم القيامة تكون على موجب كتاب الإحصاء كما دل على ذلك كلام الله سبحانه وتعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله سبحانه : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا }

وقال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ }والإمام المبين هو الكتاب العام الذي أحصى جميع أعمال العباد ، وسمي بالإمام لأنه جمع جميع الكتب الفردية الشخصية إذ إن لكل مخلوق مكلف كتاباً خاصاً ، كما قال تعالى : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا } أي : خاصاً به وبأعماله

{ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } وهذه الكتب الفردية كلها مجموعة في كتاب عام كبير وهو كتاب الإحصاء ، ويسمى : الإمام المبين ، حتى إذا جاء يوم القيامة وتجلى رب العزة سبحانه لفصل القضاء بين العباد كما قال سبحانه : { وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ } فقوله تعالى : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } أي : كتاب الإحصاء الجامع ، إذ إنه وضع للحساب والجزاء ، وهذا قوله سبحانه : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } أي : للحساب وهو الكتاب الذي أحصى جميع أفعال العباد وأقوالهم { فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } أي : خائفين مما فيه {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا } أي : يا هلكتنا وموتتنا احضري حتى نهلك ونموت ، وأنى لهم الموت وقد مات الموت وقيل : يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت [٥٠]!!

{ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ} أي : أن أمره عجيب إذ إنه { لَا يُغَادِرُ } أي : لا يترك { صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا } أي لا صغيرة ذنب ولا كبيرة ذنب إلا أحصاها ولا صغيرة من الأمور كالتبسم في الضحك ، ولا كبيرة كالقهقهة في الضحك إلا أحصاها { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا } أي : مسطّراً في الكتاب وظاهرة آثاره عليهم { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } فقد أحصى عليهم سبحانه أعمالهم وحاسبهم وجزاهم على أعمالهم ، ولهذا يقول سبحانه في

[٥٠] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

الحديث القدسي :[ يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه ] [٥١]

أي : فلا يلومن القضاء والقدر ، بل الملامة على نفسه .

وقال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } وهذه آية فيها الترغيب وفيها الترهيب ، وفيها الرجاء وفيها الخوف ، إذ يخبر فيها سبحانه أن أعمالك التي تقدّمها وآثار أعمالك المعنوية والحسية ، كل هذا مكتوب عليك فانظر ماذا تقدّم من عمل ، فيكتب العمل الذي تقدمه ، وما يترتب على العمل من آثار معنوية في الخير والشر ، وحسية من المشهودات والمسموعات والمرئيات ، وسيجري الحساب والجزاء على هذه الأعمال وآثارها ، فقوله سبحانه : { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا } أي : من أعمال وأقوال وأحوال وكل ما صدر عنهم { وَآَثَارَهُمْ } أي : آثار أعمالهم وأقوالهم .

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم :

[ من سنّ سنة حسنة فعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة عمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً ] [٥٢]

ومن جملة ذلك ما يفعله الرجل في بيته من أعمال ، وما يقوله من أقوال وتتأثر به أولاده ، فإن هو صلى وذكر الله تعالى وقرأ القرآن الكريم في بيته تأثّر أولاده بذلك وراحوا يصلون ويذكرون الله تعالى فأعمالهم في صحيفة حسناته .

وإن هو شرب الخمرة في بيته وتكلم بالسبّ والشتم والكلام الفاحش تأثر أولاده بذلك ، وعملوا على تقليده واتباعه ، فكانت أعمالهم في صحيفة سيئاته ،ولهذا يجب على المرأة المؤمنة أن تنتبه لذلك وتحذر من الوقوع في

---

٥١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

٥٢ المسند ١٨٤٠٤ واللفظ له وانظره في سنن الدارمي في المقدمة وسنن الترمذي كتاب العلم وهو في صحيح مسلم كتاب الزكاة بلفظ : من سن في الإسلام ....

المخالفات ، فإن هي صلت واحتجبت تأثرت بناتها بعملها وصلين واحتجبن ، وإن هي تركت الصلاة وخرجت سافرة نشأت بناتها على ذلك وكنّ في صحيفة سيئاتها ، وعلى هذا فليعلم الإنسان كيف يعمل ويؤثر ، فإن عمله وآثار عمله الصالح أو السيء في صحيفته إلى يوم القيامة ، كما أن الآثار الحسية للعمل مكتوبة على صاحبها سواء في الطاعة أو المعصية ، ومن هذا : كتابة آثار الخطوات التي يمشيها المؤمن إلى المسجد ومجالس طاعة الله تعالى ، كما أن الخطوات التي يمشيها الإنسان إلى أماكن اللهو والفساد مكتوبة عليه ومُحصاة عليه في صحيفة سيئاته .

ومما يدل على هذا ما جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : خلت البقاع حول المسجد - أي : من السكان - فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد - أي : أرادوا أن ينتقلوا من بيوتهم في طرف المدينة المنورة إلى هذه الدور التي خلت وهي بقرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم :

[ إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ، قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال : يا بني سلمة ديارَكم تكتب آثاركم ، دياركم تُكتب آثاركم ][٥٣] أي : الزموا دياركم فإن آثار خطواتكم إلى المسجد تكتب في صحائفكم حسنات ، وكلما زادت خطواتكم زادت حسناتكم .

وفي رواية :[ فأقاموا ] [٥٤] .

وفي هؤلاء رضي الله عنهم وفي أمثالهم نزل قوله تعالى :

{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ } [٥٥]

فليعلم الإنسان أن أعماله وآثارها الحسية والمعنوية مسطورة عليه ومحصيّة عليه في كتاب الإحصاء الذي سيجري السؤال والحساب عليه .

---

[٥٣] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[٥٤] صحيح البخاري كتاب الحج

[٥٥] عزاه ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة إلى الترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير والبزار

ويقول سبحانه : { وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا }

ونسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا صالحة وآثار أعمالنا صالحة ، ونسأله سبحانه التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

## المحاضرة الرابعة

## حول الكتابة السابقة الخاصة بكل إنسان

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

قال الله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ }

افتتح سبحانه هذه السورة الكريمة بـ {ن} وقابل { ن } بـ { القلم } مما يدل على أن المراد بـ { ن} : مدد الله الفياض على القلم ، إذ لابد للقلم من مدد ، أما القلم فهو : القلم الأعلى ، ويقال له : القلم الأول ، الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم :

[ إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد ][٥٦]

فأفاض الله سبحانه على القلم العام بجميع ما سيكون إلى يوم القيامة ، فكتب القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة ، ولقد استمدّ هذا القلم العلم بما هو كائن إلى يوم القيامة استمد ذلك من { ن } الذي هو مدد الله الفياض .

قوله تعالى : { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } أي : ما أنت يا رسول الله بسبب نعمة الله عليك بالنبوة الجامعة والرسالة العامة ، ونزول هذا القرآن الكريم الجامع للعلوم كلها ، والمتضمن لذكر العوالم كلها وما أطلعك الله عليه من المغيبات ، وما أعطاك من العقل الأول الأكمل - ما أنت بهذه النعم الإلهية عليك بمجنون ، بل أنت أعقل العقلاء وأنت أحكم الحكماء وأنت أفطن الفطناء ،فإن هذه النبوة وهذه الرسالة وهذه العلوم القرآنية وهذه الحكمة التي أوحاها الله تعالى عليك ، كل هذا يدل على أرجحية عقلك يا رسول الله

---

٥٦ تقدم تخريجه

{ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ } أي : على صبرك على ما يقولون ويفترون ، فقد قالوا عنك : ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ، وما هذه إلا أقوال متناقضة ، وأنت يا رسول الله تصبر على قولهم وأذاهم ، ولا تعاجلهم بالعقوبة والدعاء عليهم فإن لك لأجراً على صبرك

{ غَيْرَ مَمْنُونٍ }أي : غير مقطوع بل هو باق مستمر أبد الآبدين

{ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } أي : حقاً إنك يا رسول الله لعلى خلق عظيم تصبر على كلامهم وافترائهم وإيذائهم ، ولو أردت أن تنتقم لدعوت الله عليهم بالعقوبة فعاجلهم بذلك ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان حليماً صبوراً ، فقد أقسم سبحانه بالقلم الأول وما تسطره الأقلام المتتالية ـ أي : ما تكتبه ملائكة الله تعالى وتسطره وتكتبه نقلاً عن القلم الأول وأخذاً عن اللوح المحفوظ مما أُمروا بكتابته { وَمَا يَسْطُرُونَ } أي : وما تكتبه الملائكة من أعمال بني آدم التي يفعلونها ، وأقوالهم وجميع ما يصدر عنهم ، وإن لكل إنسان كتاباً معيناً ، وجميع هذه الكتب مجموعة في كتاب جامع يسمى : كتاب الإحصاء العام الجامع الذي جمع جميع أفعال العباد وأقوالهم وما يصدر عنهم ، أما الكتاب الخاص بإحصاء أعمال كل مكلف فقد أشار إليه تعالى بقوله :{ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ } أي : الخاص بك ، وأما كتاب الإحصاء الجامع لجميع كتب المكلفين الفردية فهو المشار إليه بقوله تعالى :{ وَوُضِعَ الْكِتَابُ } أي : للحساب { فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } وقوله تعالى :{ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ }

وقوله سبحانه :{ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا }وقد تقدم بيان أن الحساب يجري على موجب كتاب الإحصاء ، لا على موجب كتاب القضاء السابق .

قوله جل وعلا :{ وَمَا يَسْطُرُونَ } : يشمل ما تسطره الملائكة وتكتبه من المقادير الخاصة المعيّنة بالشخص ، فهناك اللوح المحفوظ الذي خطّ فيه القلم الأعلى وكتب فيه جميع الأشياء ، وهناك كتابة خاصة بأعمال كل إنسان ، فهناك كتاب عام في القضاء ، وهناك كتاب خاص بقضايا كل

إنسان وهو الذي أشار إليه الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال :

[ إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ][٥٧]

إذاً يكتب الملك ما سيعمله هذا الجنين إلى أن يموت .

ومما يدل على وجود كتابة خاصة لقضايا كل إنسان غير الكتاب الأول الجامع لجميع القضايا :

ما ورد في الحديث عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال :

كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم - أي : وراءه على الدابة - يوماً فقال : [ يا غلام إني أعلمك كلمات ] أي : كلمات جامعة فانتبه إليها وخذها بالقبول وتلقّها بكلّيّتك [ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف ][٥٨]

وفي رواية :[ واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرَج مع الكرب وأن مع العسر يسراً ][٥٩]

فقوله صلى الله عليه وسلم :[ احفظ الله ] أي : احفظ أمر الله تعالى فيما أمرك به ، ومن أعظم الأوامر : الصلاة ، كما قال سبحانه :{ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } واحفظ حدود الله تعالى ولا تقع فيها كما قال جل وعلا :{ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ } واحفظ الله تعالى فلا تنس ذكر الله

---

[٥٧] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق واللفظ له وصحيح مسلم كتاب القدر .

[٥٨] تقدم تخريجه

[٥٩] تقدم تخريجه

جل وعلا ،وكن على ذكر لله تعالى دائماً بأنواع الذكر القلبي والقولي والعملي ، ومن نسي الله تعالى شمله قول الله جل وعلا :

{ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } أي : تركهم من رحمته .

وعلى قدر حفظك لله تعالى ولأمر الله تعالى وحدوده يحفظك الله سبحانه ، فيحفظ عليك دينك وإيمانك ويحفظك بأنواع الحفظ في الدنيا ومواقف الآخرة [ احفظ الله تجده تجاهك ] أي : تجد نور الله تعالى وعنايته أمامك ، وتجد توفيق الله تعالى مصاحباً لك .

[ إذا سألت فاسأل الله ] : أي توجه إليه في حاجاتك كلها ، لأن الله تعالى ربك وأنت عبده ، وبعد أن تسأل الله تعالى تسلك أسباب قضاء حوائجك ، ولا تفهم من هذا تعطيل الأسباب والوسائط وإنكارها ، فإذا سألت الله تعالى أن يرزقك وقلت : اللهم ارزقني ، فينبغي عليك أن تسعى في طلب الرزق ، وتعمل بأسباب الرزق ، فتكون قد تعاطيت السبب وسألت المسبّب جل وعلا

[ وإذا استعنت فاستعن بالله ] أي : اطلب العون من الله تعالى ، والله سبحانه يسخّر لك أسباب المعونة ، فلو وقع من دابتك حمل ثقيل لم تستطع تحريكه فتقول : اللهم أعني ، فيسخر الله لك فلاناً وفلاناً ويعينوك على رفع الحمل ، كما أنك لمّا تطلب الحياة من الله تعالى وتقول : اللهم أحيني ، فإنك تسعى في أسباب الحياة فتشم الهواء وتأكل الطعام وتشرب الماء ، فلابد إذاً من تعاطي الأسباب التي نصبها الله تعالى ، والوسائط والوسائل التي وسّطها الله تعالى ، ولا ينافي هذا سؤالك الله تعالى واستعانتك بالله سبحانه .

ومن هنا تعلم مشروعية التوسل بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه من أعظم أسباب القبول والإجابة ، ولقد هدانا الله تعالى بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وساطته ووسيلته حين خطب في الأنصار رضي الله عنهم فقال :

[ يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي[٦٠] ]

---

[٦٠] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الزكاة

أي : أن الله تعالى هداهم لكن بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سبحانه أغناهم لكن بسبب وواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ألّف جل وعلا بين قلوبهم بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا تفهم من حديث :[ إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ] لا تفهم منه إنكار السبب والواسطة والوسيلة ، أو النهي عن سؤال الواسطة والوسيلة لأن الله تعالى يقول :{ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ } فنهى سبحانه عن رد السائل ، سواء كان سائل مال أو قضاء أو حاجة أو علم ، وإن سؤال العبد لربه سؤال عبد لرب خالق ، وسؤال العبد للعبد على أنه واسطة ووسيلة في قضاء الحاجة ، والخالق والفعال على الحقيقة هو الله تعالى وحده .

فإذا كنت جاهلاً فتسأل الله تعالى وتقول : اللهم علّمني ، ولا ينافي هذا أن تحضر مجالس العلم وتسأل العلماء ، لأن الله تعالى يقول :

{ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

وإذا احتجت إلى المعونة فتسأل الله تعالى العون وتقول : اللهم أعنّي ، ولكن هذا لا ينافي أن تطلب أسباب ووسائل المعونة لأن الله تعالى يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ }

وذَكَر سبحانه عن ذي القرنين عليه السلام قوله {فأعينوني بقوة } الآية

وأما قوله صلى الله عليه وسلم :[ رفعت الأقلام وجفّت الصحف ] فالمراد بالأقلام : أقلام الصحف إذ إن لكل إنسان صحيفة ، وهي المشار إليها في الحديث :[ ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ][٦١]

[٦١] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب القدر واللفظ له وصحيح البخاري كتاب بدء الخلق

أي : أن هذه الصحف التي تُكتب على كل إنسان ، قد جفّت ورفعت الأقلام عنها ، ولا تفهم من هذا أن الكتابة السابقة لأعمالك وما سيجري عليك تسلب صفة الاختيار منك في طاعاتك أو مخالفاتك ، فلا يلزم من إثبات القضاء السابق إنكار اختيار الإنسان ومشيئته ، فلقد قضى سبحانه أنك تفعل كذا وكذا باختيارك وإرادتك ، فقضى سبحانه أنك تصلي ولكن باختيارك وإرادتك ومشيئتك ، فالصلاة مقضية واختيارك للصلاة أمر مقضيّ أيضاً ، والكل بقضاء وقدر من الله تعالى .

ولا يمكن للإنسان أن ينكر صفة الاختيار والمشيئة فيه فهي ثابتة له ذوقاً ووجداناً ، إذ إنه يفرق بين أمور يفعلها باختياره ومشيئته كالأكل والشرب ، وبين أمور تعتريه ولا اختيار له فيها كالعطاس والتثاؤب والارتعاش ، كما أن صفة الاختيار ثابتة للإنسان عقلاً وفطرة ، إذ إنه يفرق بين ضربة البشر وصدمة الشجر كما تقدم بيانه ، وهي ثابتة للإنسان شرعاً فقد أخبر سبحانه عن ثبوت صفة الاختيار والمشيئة للإنسان في القرآن الكريم فقال تعالى :

{وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ }

ولا تقل : إن هذه المشيئة والاختيار ليست حقيقية في الإنسان ، فقد أثبتها الله تعالى في القرآن الكريم قال سبحانه : { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ }
كما أن الشارع علّق المسؤولية والحساب على الأفعال الاختيارية للعبد ، فإذا صدر منه أفعال لا اختيار له فيها فلا مسؤولية ولا حساب عليه كما قال تعالى : { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ }

وقال سبحانه : { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } أي : فلا مسؤولية عليه لأنه نطق بكلمة الكفر مكرهاً مضطراً عند الضرورة ، والضرورة الشرعية هي :

الضرورة المؤدية إلى الموت أو تعطيل جارحة في الإنسان .

**رد على شبهة ضالة :**

رُبّ إنسان بسبب جهله يقول :

إن الله تعالى يقول :

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } فأثبت للإنسان اختياراً ومشيئة ، ولكنه سبحانه قال أيضاً : { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ويفهم من هذا بسبب جهله وقلة علمه أن هناك تناقضاً في هاتين الآيتين وأنه لا اختيار حقيقي له ، لأن اختياره ومشيئته بخلق الله تعالى ومشيئته ، فيقال : اعلم أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى ولا تناقض فيه كما قال سبحانه : { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }ولكنه من عند الله تعالى وكلّه حق وحقيقة ، فقوله تعالى : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } هو كلام حق أثبت فيه المشيئة للإنسان وقوله تعالى : { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } لا يعني أنه لا مشيئة للعبد ، لأن الله تعالى أثبت المشيئة للإنسان في الآية السابقة وأما قولك : إن مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله تعالى ، وهذا يعني أن لا مشيئة للإنسان ، فإن هذا الفهم منك للآية باطل ومردود ، واعلم أن المشيئة والاختيار صفة من صفاتك التي خلقها الله تعالى فيك ، فلمَ وقفت عند صفة الاختيار وارتبت في أمرها ؟ فقوله سبحانه : { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}ينطبق على جميع صفاتك ، ومن هذا : وما تسمعون إلا أن يشاء الله تعالى ، وما تبصرون إلا أن يشاء الله تعالى ، ، وما تنطقون إلا أن يشاء الله تعالى وهكذا ..

وإذا ارتبت في هذا فقد قال سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ } فإذا أراد سبحانه أن يسمعك أسمعك ، وإذا أراد ما أسمعك ، وهكذا سائر أوصافك فإنها تابعة لمشيئة الله تعالى ، فكل ما صدر عنك فهو بمشيئة الله تعالى ، ومن ذلك أنه شاء أنك تشاء ، فشاء لك الصلاة فصلّيت بمشيئتك ، ومشيئتك وصف من أوصافك ، ولولا أنه سبحانه شاء لما شئت أنت ، لأنه لا يمكن أن يحصل منك أمر إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته وخلقه سبحانه ، فأنت لست رباً حتى تخلق خلقاً ، ولست رباً حتى تخلق عملاً ، وإنما الذي يخلق ويشاء هو الله تعالى ، فإذا شاء لك أن تسمع سمعت ، وإنَّ سمعك سماع

حقيقي ليس بوهمي ، مع أنه بخلق الله تعالى ومشيئة الله تعالى ، فشاء لك سبحانه أن تبصر فأنت البصير والوصف وصفك ، وشاء لك أن تسمع فأنت السميع والوصف وصفك ، وشاء لك أن تحيا فأنت الحي على الحقيقة ، وشاء لك سبحانه أن تشاء وتختار فأنت المختار على الحقيقة .

وخلاصة القول : إن المشيئة وصف من أوصافك ، وجميع أوصافك بمشيئة الله تعالى وإرادته وخلقه ، فلمَ تركت الأوصاف كلها ووقفت عند صفة المشيئة ؟

وإذا كنت تدّعي أنه ما دامت مشيئتك هي بخلق الله تعالى ومشيئته سبحانه فلا مشيئة لك ، فيجب عليك أن تدعي أيضاً أنه لا سمع لك ولا بصر لك ولا حياة لك لأن جميع هذه الأوصاف هي بخلق الله تعالى ومشيئته ، والحال أنه لا يمكنك ذلك لأنك سميع على الحقيقة وبصير على الحقيقة وحيّ على الحقيقة ، والكل بخلق الله ومشيئته ، وأنت المختار على الحقيقة ، واختيارك هو بخلق الله تعالى ومشيئته ، ولقد شاء الله تعالى لك أن تحيا فخلق فيك الحياة ، فأنت حي على الحقيقة ، وحياتك إنما هي حياة عبد مخلوق بدليل أنك ستموت عند انتهاء أجلك ، وشاء سبحانه لك السمع فخلق فيك حقيقة السمع فأنت سميع على الحقيقة بدليل أن هناك فرقاً بينك وبين الأطرش، وكذلك بصرك ونطقك ، فأنت بصير وناطق بخلق الله تعالى ومشيئته سبحانه .

كما أنك مختار وذو مشيئة وذلك بخلق الله تعالى ومشيئته سبحانه ، فكل صفاتك إنما هي بخلق الله تعالى ومشيئته سبحانه ، ولو أنكرت صفة الاختيار لأنها بخلق الله ومشيئة الله تعالى ، لوجب عليك أن تنكر جميع صفاتك لأنها كلها بخلق الله ومشيئة الله سبحانه ، كيف وهي ثابتة لك ؟!

واعلم أن التكاليف الشرعية التي كلّف الله تعالى بها الإنسان إنما جاءت على نسبة ما أعطاه الله سبحانه من القوى والمدارك والاختيار والمشيئة كما قال تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } فلما كلّفك سبحانه بالصلاة مثلاً أعطاك القوة على فعل الصلاة والنهوض إليها ، ولم يأمرك سبحانه أن تنقل البحار من الشرق إلى الغرب ، و تنقل الجبال من الشرق إلى الغرب أو

تصعد إلى السماء بجسمك ، ولقد أعطاك الله تعالى سمعاً فأنت سميع ، ولكن سمعك ليس كسمع الله تعالى إذ إن سمعه سبحانه لا يتناهى ، وكذا البصر والعقل والمشيئة والاختيار فهي أوصاف ثابتة لك مناسبة لكونك مخلوقاً مكلفاً ، وتكليفك على نسبة ما أعطاك سبحانه من القوى والمشيئة ، واعلم أن الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره يوجب عليك أن تعتقد أولاً علم الله السابق بالأشياء - وهذا العلم لا أول له - ، ثم أنه سبحانه أمر بكتابة ذلك ، ثم أنه سبحانه شاء ذلك ثم خلق ذلك بخلقه تعالى .

فالقضاء والقدر يتضمن العلم السابق ، ثم الكتابة والمشيئة لخلق الفعل تنفيذاً ثم خلقاً تكوينياً ، ولا يلزم من هذا سلب صفة الاختيار من الإنسان كما تقدم بيانه .

ومن جملة ذلك : ما تسطره الأقلام العالية في تنفيذ أحكام الله تعالى الشرعية والكونية ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه : [ ثم عُرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ] [٦٢]

أي : رفعت لمعتلى - لأن المستوى هو الموضع العالي - أسمع فيه صريف الأقلام أي : صوت الأقلام التي تجري بالكتابة في تنفيذ أحكام الله تعالى وقضائه تنفيذاً ، أما معراجه الشريف صلى الله عليه وسلم فقد أشارت إليه الآية الكريمة : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

فقوله تعالى : { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا } أي : لنري هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من آياتنا الكبرى العالية التي لم يطّلع عليها غيره ، ولنسمعه من آياتنا ، يدل على هذا قوله تعالى : { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }وإن الضمير عائد إلى العبد المذكور بقوله تعالى : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعطاه الله تعالى قوة في سمعه وبصره ، فسمع أموراً لم يسمعها غيره ، ورأى أموراً لم يرها غيره [٦٣].

---

[٦٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصلاة وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[٦٣] وللألوسي رحمه الله تعالى كلام نفيس في هذا الباب انظره عند تفسيره لهذه الآية الكريمة

وإن قوله تعالى : { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا } فيه إشارة إلى معراجه الشريف صلى الله عليه وسلم الذي جاء ذكره صريحاً في سورة النجم ، قال تعالى :

{ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى }

وهذه الآيات هي في السموات وفوق السموات عند سدرة المنتهى ودخوله الجنة ، وانكشاف العوالم الغيبية له ، ثم رفعه إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وهكذا فإن الآية : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } نص صريح بالإسراء ، كما أنها تشير إلى المعراج بقوله تعالى :

{ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا }

وهي الآيات الكبرى التي ذكرها سبحانه في سورة النجم بقوله تعالى : { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى }وهذا نص صريح بمعراجه الشريف صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم .

والمعراج هو : العروج أي : الاعتلاء إلى السموات وما فوقها .

ولقد افتتح سبحانه سورة النجم التي ذكر فيها معراجه صلى الله عليه وسلم افتتحها بقوله تعالى : { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } والمراد جنس النجوم المتحركة والتي تسرع في حركتها ضمن فلكها ، والهويّ هو : السرعة في الحركة ، كما قال تعالى إخباراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

{ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ } أي : تسرع إليهم ، فالله سبحانه الذي قدر على تسيير النجوم في أفلاكها بالسرعة القوية مع الحفاظ على جرمها وكيانها من التفتت هو قادر على أن يعرج برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسمه وروحه إلى ما فوق السموات السبع ، وأن يريه الآيات الكبرى ويسمعه كذلك مع الحفاظ على جسمه وعقله ومداركه صلى الله عليه وسلم .

ولقد علا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مستوى رفيع عال سمع فيه صريف الأقلام أي : - سماع صوت وفهم - وهي الأقلام التي تجري في تنفيذ أحكام الله القضائية - فإذا تحرك القلم بتحريك فلان تحرك فلان ، وإذا

سكن القلم سكن فلان ، فجميع الحركات والسكنات والإرادات إنما هي منوطة بتلك الأقلام العالية ، ولم ينته صلى الله عليه وسلم في معراجه وانكشاف المغيبات له إلا إلى قوله تعالى : { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } التي ذكرها سبحانه في آخر سورة النجم ،فلم ينته صلى الله عليه وسلم عند سموات أو سدرة أو جنة بل انتهى إلى مقام المكافحة - أي : رفع الحجب - وهناك تجلى عليه رب العالمين بالرؤيا وكلّمه سبحانه وتعالى ، ونال صلى الله عليه وسلم مقاماً خاصاً في القرب ، أخبر عنه سبحانه بقوله :

{ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى }

فلا تفهم من قصة إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم مجرد علو وارتقاء إلى السموات ، وإنما هي علو وارتقاء ودخول في عوالم غيبية أطلع الله عليها رسوله صلى الله عليه وسلم .
ومن ذلك ماجاء في الحديث عن أنس بن ماللك رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟
قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم ] [٦٤]
وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى ، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى ][٦٥] وإن سيدنا جبريل بحقيقته الجبريلية له ستمائة جناح ، ملأ ما بين السموات والأرض بجناح واحد [٦٦]، ولكنه في مقام الخشية من الله تعالى رآه صلى الله عليه وسلم كالحلس البالي – والحلس هو الكساء الرقيق أي يكاد جبريل عليه السلام أن يذوب من خشية الله تعالى - .

---

[٦٤] انظره في سنن أبي داود كتاب الأدب والمسند ١٢٨٦١ والمعجم الأوسط للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

[٦٥] كما في المعجم الأوسط للطبراني وقال عنه في مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح ، وعزاه في كنز العمال للديلمي ، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ، وابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء ، وقال الحافظ المناوي في فيض القدير : قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح ، وقال شيخه العراقي : رواه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة ، والبيهقي في الدلائل من حديث أنس .

[٦٦] روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :
رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ست مائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [ لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى - أي : في جملة من رأى صلى الله عليه وسلم من الأنبياء - فتذاكروا أمر الساعة ، فردّوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى موسى فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أما وجبتها - أي وقت وقوعها- فلا يعلمها أحد إلا الله ، ذلك وفيما عهد إلي ربي عز وجل أن الدجال خارج ، قال : ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله تعالى ] [٦٧]

ومن هذا تفهم أن الدجال لا يموت بسبب من الأسباب إلا حين يرى سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال : ( يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ) - على نبينا وعلى سيدنا إبراهيم الصلاة والسلام ، وانظر في كرامة هذه الأمة على الله تعالى إذ إن حبيب الله صلى الله عليه وسلم حمل السلام من خليل الله عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة المحمدية –

( وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ) - أي : واسعة صالحة للزراعة – ( وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ][٦٨] .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض - أي : ليلة الإسراء والمعراج - قلت : يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرّمته ، جعلت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وسخّرت لداود الجبال ولسليمان الريح والشياطين وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لي ؟

قال : أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ، أني لا أُذكر إلا ذُكرت معي - أي : قَرنت ذكرك بذكري يا رسول الله ، وهذا معنى قوله تعالى : { ورفعنا لك ذكرك } - قال سبحانه : وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ، ولم أعطها أمّة ، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي :

---

[٦٧] المسند ٣٣٧٥ وعزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى ابن أبي شيبة ، وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقي فى البعث

[٦٨] سنن الترمذي كتاب الدعوات بهذا اللفظ وانظره في المعجم الكبير للطبراني ومسند البزار

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ] [٦٩] .
أي : فمن تمسك بها فقد تمسك بقوة عرش الله تعالى .
ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

---
٦٩ انظر تفسير ابن كثير لسورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

**المحاضرة الخامسة**

**حول بيان كتابة أعمال الإنسان بعد صدورها عنه**

**الكتاب الخاص بكل إنسان**

**كتاب الإحصاء العام**

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

قال الله تعالى :

{ ن والقلم وما يسطرون }

وإن من جملة ما تسطره الملائكة :

قضايا القضاء والقدر نقلاً عن الكتاب الأول ، وما تسطره من أعمال بني آدم ، وقد تقدم الدليل على أن الحجة والحساب يجري يوم القيامة بموجب كتاب الإحصاء لا بموجب كتاب القضاء السابق ، أما كتاب الإحصاء العام فهو الذي أحصى وجمع جميع أعمال بني آدم ، وهناك كتاب خاص بأعمال كل إنسان ، وجميع هذه الكتب مجموعة في كتاب الإحصاء العام ، وفي هذا يقول تعالى :

{ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً }

فقوله تعالى :{ وكل إنسان ألزمناه طائره } أي : ما طار منه وصدر عنه من قول وعمل اختياري اختاره ، فهو صادر عنه ، كالطائر الذي طار منه ، فهو مسطور ومسجّل عليه وملازم له لزوم القلادة والطوق للعنق ، فأعمالك ملازمة لك ومطوّقة لعنقك ولا تنفكّ عنك ، وإذا كان أهلك وقرابتك ملازمين لك بالظاهر وكذلك مالك ، إذ إنك دائماً تسعى إلى طلبه وتحصيله ، فهناك من يلازمك إلى الأبد وهو عملك ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه :

[ يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله ] [٧٠]

فالملازم الحقيقي لك في حياتك وبعد مماتك وفي دنياك وآخرتك إنما هو العمل ، ومن هنا يجب على العاقل أن يهتم بالعمل أشد من اهتمامه بالمال والعيال لأنه الملازم له والمصاحب له في الدنيا والآخرة ، ولذلك قال تعالى : {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً }

---

[٧٠] صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق

أي : هو كتاب عمله الصادر عنه الذي طار عنه ، ولهذا جاء في قراءة أبي جعفر أحد العشرة [٧١]:{ ويُخرَجُ له يوم القيامة كتاباً }[٧٢]
أي : هذا ما صدر منك يُخرَجُ حال كونه في الآخرة كتاباً ، ويقال له : { اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً } أي : هذا هو حجة الله تعالى عليك في الآخرة .

وإن هذه الكتب الفردية لكل إنسان مجموعة في كتاب عام هو كتاب الإحصاء الذي قال فيه سبحانه :{ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين }
.وقال جل وعلا :{ إن جهنم كانت مرصاداً } أي : موضع ترصّد وترقّب للكفار فمتى اقتربوا منها أخذتهم بقوة والعياذ بالله تعالى .
{ للطاغين مآباً } أي : مرجعاً للطاغين وهم المجاوزون حدود الله الشرعية
{ لابثين فيها أحقاباً } أي :أحقاباً بعد أحقاب وهكذا أبد الآبدين
{لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً } أي : لا يذوقون فيها جواً بارداً ، ولا شراباً يروي بطونهم فلا يذوقون برودة خارجية ولا داخلية ، وقال بعض السلف : لا يذوقون فيها برداً : أي : نوماً ، لأن النوم يكسب الجسم شيئاً من البرودة [٧٣]
{ إلا حميماً وغساقاً } أي : إن اشتد عليهم العطش يقدم لهم ماء الحميم فيصهر ما في بطونهم ، والغساق هو صديد أهل النار فيقدم لهم شراباً لأنهم شربوا الخبائث في الدنيا [٧٤].
{ جزاء وفاقاً } أي : أن جزاءهم موافق للجرم الذي ارتكبوه
{ إنهم كانوا لا يرجون حساباً } أي : لا يؤمنون بيوم الحساب ولا يحسبون له حساباً
{ وكذبوا بآياتنا } أي : آياتنا القرآنية التي تخبر عن يوم الحساب والآخرة

---

[٧١] هو يزيد بن القَعقَاع المخزومي المدني أبو جعفر، أحد القراء العشرة ومن التابعين ، كان إمام أهل المدينة في القراءة، توفي في المدينة سنة ١٣٠هـ رحمه الله ورضي عنه

[٧٢] قال الحافظ ابن الجزري رحمه الله في النشر في القراءت العشر : ( واختلفوا ) في : { ونخرج له } فقرأ أبو جعفر بالياء وضمها وفتح الراء ، وقرأ يعقوب بالباء وفتحها وضم الراء ، وقرأ الباقون بالنون وضمها وكسر الراء .
( واتفقوا ) على نصب كتاباً

[٧٣] انظر ما جاء في تفسير الدر المنثور للآية الكريمة .
وذكر ابن أبي الدنيا عن الحسن رضي الله عنه في قوله تعالى :
{لا يذوقون فيها بردا ولا شراباً } قال الحسن : « البرد : النوم »

[٧٤] قال السيوطي في الدر المنثور :
الحميم الحار الذي يُحرق ، والغسّاق ما يسيل من صديدهم .

{ كذاباً } أي : تكذيباً عنيفاً فكذّبوا في أنفسهم وراحوا ينكرون ذلك ويقولون : ما هذا إلا خرافات وأساطير ، قال تعالى :{ وكل شيء أحصيناه كتاباً }
أي : كل شيء أحصيناه وجمعناه عليهم وسطرناه كتاباً
{ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً } نسأل الله تعالى العافية .
فقوله تعالى : { وكل شيء أحصيناه كتاباً } هو الكتاب الذي أحصى جميع أعمال العباد ، وهو المشار إليه بقوله تعالى :
{إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين } أي : وكل شيء أحصيناه على العباد في إمام مبين ، وهو كتاب الإحصاء العام ، لأن جميع الكتب الفردية الخاصة بكل إنسان مجموعة في هذا الكتاب ومقترنة به .
واعلم أن أعمالك وأقوالك تكتب في صحيفتك ، كما تكتب هذه الأقوال والأعمال سواء كانت هذه الآثار حسية أو معنوية ، كما تقدم في الحديث : [ يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم ] [٧٥]، فخطوات الماشي إلى المسجد أو مجلس العلم أو ذكر الله تعالى تُكتب في صحيفة حسناته ، وكذلك آثار الأعمال والأقوال المعنوية ، فإذا تلفظت بكلمة فتكتب هذه الكلمة في صحيفتك ، وتكتب آثارها في السامعين في صحيفتك أيضاً ، وهكذا ، فليعلم الإنسان ماذا يعمل ؟ وماذا يترتب على عمله من آثار ؟
ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم الآباء من التساهل في تربية الأولاد فقال : [ ما من مولود إلا يُولَد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟] [٧٦]، وفي رواية : [ حتى تكونوا أنتم تجدعونها ] [٧٧]، أي : أن ولد الشاة يولد تاماً ، ثم إن صاحبه هو الذي يجدع أذنه أو يجعل له علامة في إليته ،وهكذا المولود الإنساني يولد على فطرة الإيمان والتوحيد ، فليحافظ الوالدان على فطرته الدينية ، فلا يكفّرانه ولا يتركا له المجال للكفر والفسق ، وهذا معنى [ يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ] أي : أنهما يتركانه بلا تربية دينية فيضل ويفسق وربما كفر وتهوّد وهكذا ، فالمسؤول والمحاسب على ذلك هو أبواه ، وفي هذا يقول تعالى :
{ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً }
فليتق المؤمن ربه في أولاده ، بأن يرعاهم ويتعهدهم بالهدي والتربية الدينية لأن كل ذلك مكتوب في صحيفته ، ومن هنا يعلم الإنسان عظمة

---

[٧٥] تقدم تخريجه
[٧٦] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب القدر
[٧٧] صحيح البخاري كتاب القدر

فضل النبي صلى الله عليه وسلم لأن آثار الخير التي ظهرت في العالمين منذ خلق الله تعالى العالم إلى أبد الآبدين إنما كان سبب ظهورها هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كل أعمال المكلفين الصالحة من لدن آدم عليه السلام إلى يوم الدين إنما هي بسبب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في صحيفته لأن الله تعالى افتتح به النبوات ، والنبوة باب فضل وخير إلهي كبير على العالم ، فجعل صلى الله عليه وسلم ينشر الخير ويعلمه الناس على حسب استعدادهم وما أذن الله له به .

ويقول تعالى في بيان كتاب الإحصاء :

{ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون }

ففي هذه الآيات الكريمة يذكر سبحانه موقف الحساب في الآخرة بعدما انفض الناس من المحشر إلى الحساب وذلك بعد أن شفع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :{وأشرقت الأرض } أي : أرض الحساب { بنور ربها } أي : لما تجلى سبحانه لفصل القضاء بين العباد ، وهذا قوله تعالى :{ وجاء ربك والملك صفاً صفاً } أي : إلى موقف الحساب { وجيء يومئذ بجهنم } ولما كانت قوة النور تظهر دقائق الأمور فلذلك لما أشرقت أرض الحساب بنور ربها ، هناك علمت كل نفس ما قدّمت وأخّرت ، وظهرت الخفايا والدقائق والسرائر علانية ، فلا يسع نفساً أن تنكر أعمالها ، ولهذا قال تعالى :{ علمت نفس ما أحضرت } .

وقوله سبحانه : {ووضع الكتاب } أي : للحساب ، وهو كتاب الإحصاء الذي سيجري الحساب على موجبه ، بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا } أي : ظهرت أعمالهم عياناً لهم وذلك بنور الله تعالى الذي تجلى به على أرض الموقف { ولا يظلم ربك أحداً }

وقوله جل وعلا : { وجيء بالنبيين والشهداء } أي : جيء بالنبيين للسؤال عن تبليغهم ، كما أنه سبحانه يسأل الأمم عن تبلّغها ، وفي هذا يقول سبحانه :{ فلنسألن الذي أرسل إليهم ولنسألن المرسلين } فالمؤمنون من الأمم يشهدون أن الرسل قد بلغتهم ، أما الكفار فينكرون .

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[ يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، وأكثر من ذلك ، فيُدعى قومه فيقال لهم : هل بلّغكم هذا ؟

فيقولون :لا - وهم الكفار من أمته - فيقال له : هل بلّغت قومك ؟
فيقول : نعم ، فيقال له : من يشهد لك ؟- أي : من يشهد لك أنك بلّغت لأن أمتك الكافرة تنكر ، والبيّنة على المدعي –
فيقول : محمد صلى الله عليه وسلم وأمّته
فيُدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلّغ هذا قومه ؟
فيقولون : نعم - فتشهد هذه الأمة المتبعة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد عند الله تعالى أن الرسل قد بلغت الأمم - .
فيقال : وما عِلمكم ؟
فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطاً }[٧٨] .
وإذا كانت الشهادة لا تكون إلا عن مشاهدة وعيان ، فإن وُجد ما هو أقوى من العيان كانت الشهادة أقوى من العيان ، ولذلك فإن الشهادة على خبر القرآن الكريم الذي جاء به سيد الأنام أقوى من الشهادة المترتبة على رؤيا العيان ، لأن العيان جائز عليه الزيغ ورؤية خلاف الواقع إذا كان الجسم فاسد المزاج ، أما خبر القرآن الكريم فهو خبر موثوق لا يجري عليه وهم ولا خيال ولا تبديل ولا تغيير ، وفي هذا يقول تعالى :{ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً } أي : خياراً عدولاً يا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم { لتكونوا شهداء على الناس } أي : قبلكم { ويكون الرسول عليكم شهيداً } أي : أنه يزكّيكم ويعدّلكم صلى الله عليه وسلم .
وهذا قوله تعالى :{ وجيء بالنبيين } أي : سُئلوا فأجابوا ، وسئلت الأمم وتكلمت { والشهداء } أي : وجيء بالشهداء لأجل أن يشهدوا ، لأن الموقف موقف حساب .
والشهداء على أنواع : فهناك الملائكة الذين شاهدوا عملك وهم معك ، كما قال سبحانه :{ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد }
ومن الشهداء أيضاً : الأحجار والأشجار والجدران التي شاهدت أعمالك وسمعت أقوالك كما قال صلى الله عليه وسلم : [ لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ] [٧٩]
وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى عن شهادة الأرض بما شاهدت :
{ يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها } .
وقد بيّن صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم { يومئذ تحدث أخبارها }

---

[٧٨] المسند ١١١٣٢ وأصله في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء
[٧٩] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

قال : أتدرون ما أخبارها ؟ - وجاء بذلك على طريق السؤال حتى يثبّت الجواب في قلوبهم –
قالوا : الله ورسوله أعلم
قال :فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أوأَمَة – أي امرأة - بما عمل على ظهرها أن تقول:عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا،قال :فهذه أخبارها ][80]
ومن تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً محا الله تعالى آثار الذنوب من صحيفته ، ومحاها من كل من شاهده من أرض وشجر ومدر ، وبدّل مكان السيئات حسنات كما قال سبحانه :{ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً } أي ستوراً { رحيماً }
ومن جملة الشهداء : القرآن الكريم ، كما قال صلى الله عليه وسلم :
[ والقرآن حجة لك أو عليك ] [81]، فإن عملت به شهِد لك عند الله تعالى ، وإن لم تعمل به شهد عليك عند الله تعالى ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم :
[ القرآن شافع مُشفّع وماحِل مصدق - أي : مُدافع عمن عمل به - مَن جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار ] [82]
واعلم أن من أعظم الشهداء عليك أو لك هو سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ،كما قال تعالى :
{ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً}
اللهم اكتبنا مع الشاهدين .آمين .

---
[80] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع والمسند ٨٥١٢
[81] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الطهارة
[82] عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى الطبرانى ، وأبي نعيم فى الحلية عن ابن مسعود وإلى ابن حبان ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء عن جابر

**الكتابات الخاصة في صحف خاصة لأعمال صالحة خاصة :**

قال سبحانه :{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ }

قوله جل وعلا : { وما يسطرون } أي وما تسطره الملائكة الساطرون مما يتعلق بتفصيل أعمال بني آدم ، ومما يتعلق بتفصيل أحكام القضاء السابق ، ومما يتعلق بأعمال بني آدم بعد صدورها منهم ، ومما يسطرون من الدواوين العالية لأعمال خاصة لبني آدم .

أما تسطير وكتابة الملائكة الساطرين لأعمال بني آدم العامة ، فقد قال سبحانه : { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ }

وأما تسطير الأعمال الخاصة لبني آدم في صحف خاصة فهي تسطرها ملائكة خصهم الله تعالى بذلك ، وذلك لفضل هذه الأعمال عند الله تعالى ، فمن ذلك : من بكّر إلى صلاة الجمعة .

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن والمسانيد والرواية للإمام أحمد عن أبي غالب عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ تقعد الملائكة يوم الجمعة على أبواب المساجد معهم الصحف يكتبون الناس ، فإذا خرج الإمام طُويت الصحف ، قلت : يا أبا أمامة ليس لمن جاء بعد خروج الإمام جمعة ؟ قال : بلى ولكن ليس ممن يكتب في الصحف ] [٨٣]

أي : لا يُكتب في تلك الصحف الخاصة ، وإنما يكتب في صحيفة أعماله العامة التي يكتبها الكرام الكاتبون .

فهذه الصحف الخاصة تُدوَّن في دواوين أهل السماء ، وترفع إلى رب العالمين .

ومن هذا أيضاً ما ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[ عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البِر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً ] [٨٤]

وهذا يدل على أن هناك ديواناً خاصاً بالصّدّيقين الذين تحققوا بالصدق ،

---

[٨٣] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب الجمعة وسنن الترمذي كتاب الجمعة وسنن النسائي كتاب الجمعة وسنن أبي داود كتاب الطهارة وموطأ الإمام مالك كتاب النداء للصلاة وسنن الدارمي كتاب الصلاة والمسند ٢١٢٣٨

[٨٤] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .

وهناك ديوان الأشقياء الذين كانوا يكذبون في أقوالهم وأعمالهم ، وإن كتاب الصديقين في عِلّيين ، أما كتاب الأشقياء ففي سجين .

قوله صلى الله عليه وسلم :[ فإن الصدق يهدي إلى البر ] أي : إن صدق القول والعمل يهدي إلى كمال الإيمان وهو البر ، كما قال تعالى :

{ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر } الآية

أما صدق القول فهو : أن يكون القول مطابقاً للواقع ، وصدق العمل هو : الإخلاص في العمل لله تعالى دون رياء أو سمعة ، وهناك صدق الحال وهو : أن يكون ظاهرك و باطنك على حد سواء ، وأن لا يخالف ظاهرك باطنك بأن تظهر الخشية مثلاً أمام الناس ، ولكن قلبك ليس بخائف ولا وجل من الله سبحانه وتعالى .

ومَن تحقق بالصدق في قوله وعمله وحاله كُتب عندالله تعالى صديقاً ، ومتى سُجِّل في ديوان الصديقين فإنه لا يمحى أبد الآبدين .

ثم حذر صلى الله عليه وسلم من الكذب ، وبيّن أن الكذب في القول يهدي صاحبه إلى الفجور العملي والوقوع في المخالفات ، لأن من أصرّ على ذنب جره إلى ذنب آخر وهكذا .

ومن جملة الكتابات الخاصة لأعمال خاصة في دواوين خاصة ترفع إلى رب العزة سبحانه :

ما ورد في الحديث عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشر يُرى في وجهه ، فقلنا :

إنا لنرى البِشر في وجهك ، فقال : إنه أتاني ملك فقال : يا محمد إن ربك يقول : أَمَا يرضيك أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلِّم عليك إلا سلمت عليه عشراً ][٨٥]

وفي رواية عن أبي طلحة رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسارير وجهه تبرق فقلت : يا رسول الله ما رأيتك أطيب نفساً ولا أظهر بِشراً منك في يومك هذا ، فقال : [ ومالي لا تطيب نفسي ولا يظهر بِشْري ، وإنما فارقني جبريل عليه السلام الساعة ، فقال : يا محمد مَن صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ، ورفعه بها عشر درجات ، وقال له الملك مثل ما قال لك - أي قال له : وأنت صلى الله عليك ، وإن الملك يقول ذلك بأمر من رب العالمين - ، قلت : يا جبريل وما ذاك الملك ؟ قال : إن الله عزوجل وكّل بها ملكاً من لدن خلقك إلى أن يبعثك لا يصلي عليك أحد من

---

[٨٥] المسند ١٥٧٦٧ وسنن النسائي كتاب السهو

أمتك إلا قال : وأنت صلى الله عليك][86]
وإن هذه الدواوين الخاصة بأعمال صالحة خاصة إنما ترفع إلى رب العالمين جل وعلا وتُنسخ في الدواوين العالية الكبرى .
روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[ تُعرض الأعمال على الله عز وجل في كل يوم اثنين وخميس فيغفر الله في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال :[ اركوا هذين حتى يصطلحا ،اركوا [87] هذين حتى يصطلحا ][88]
وفي رواية : [ تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس ][89]
وفي رواية :[ تُنسخ دواوين أهل الأرض في دواوين أهل السماء في كل اثنين وخميس ، فيغفر لكل مسلم لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً بينه وبين أخيه شحناء ] [90]
أي : تُدوَّن في الدواوين العالية وتصبح نسخاً في دواوين الملأ الأعلى ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يصوم يوم الاثنين والخميس لِما لهما من شأن واعتبار ، وإن جميع هذه الكتابات والنسخ والتسطير مشتمل عليها قوله تعالى :{ وما يسطرون }
ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

---

[86] المعجم الكبير للطبراني وأصله في مسند الإمام أحمد بلفظ : أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا. "
[87] قال في لسان العرب : ومعنى اركوا هذين أي : أَخِّروا .
[88] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .
[89] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[90] المعجم الكبير والأوسط للطبراني

بسم الله الرحمن الرحيم

**المحاضرة السادسة**

**حول بيان سعة علومه صلى الله عليه وسلم ، وعظيم نعمة الله تعالى عليه بالنبوة الجامعة والرسالة العامة**

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

قال تعالى :{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } الآيات إن في هذه الآيات الكريمة بياناً لفضائل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإشادة بفضل النبي صلى الله عليه وسلم ، وإعلاناً من الله تعالى بفضل هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

أما المراد بقوله تعالى :{ ن } فهو مدد الله الفياض بدليل مقابلة { ن} بـ { القلم } وهو القلم الأول الذي جاء ذكره على لسان صاحب البيان عن القرآن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال :

[ أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ] [٩١]

فأمدّ الله تعالى القلم بالعلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجرى القلم وكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وتطلق { ن } في لغة العرب على المدد التي تستمد منه الأقلام - وهو الحبر - ، ولذلك فإن {ن} هي مدد الله الفياض الذي أمدّ القلم بالعلم بما هو كائن إلى يوم القيامة .

أما وجه المناسبة بين القسم والمقسم عليه فهو : أن الله تعالى الذي أفاض العلم على القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، هو سبحانه الذي أفاض العلوم والمعارف والأسرار والأنوار على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى :{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ }هذا هو المُقسَم عليه ، والمعنى : بل أنت يا رسول الله أكمل عاقل ، بل أنت صاحب العقل الأول والأفضل ، وصاحب العلم الأول والمقام الأعلى ، فلله عليك نِعمٌ لا يعلم حقيقتها إلا الذي أنعم عليك بها وهو الله سبحانه وتعالى .

---

[٩١] تقدم تخريجه

فقوله تعالى :{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ } أي : بسبب نعمة ربك عليك ، وربك أعلم بك وبقابليتك واستعدادك ، فقد أفاض عليك العلوم والمعارف والأسرار والأنوار على وجه لا يعلم ذلك إلا هو تبارك وتعالى .

أما نعم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فهي نعم كبيرة كثيرة لا يعلم حَدّها وحصرها إلا الله تعالى ، وكل نعمة حَوَت نعماً كبيرة ، ولذلك قال تعالى :{ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } ومن ذلك : نعمة النبوة ، فإنها من أكبر النعم ، ونعمة الرسالة العامة ، ونعمة إنزال القرآن الكريم ، ونعمة الحكمة التي أعطاها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا }، ونعمة المراتب والمقامات التي خصّ الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم هي فوق جميع المراتب .

أما الدليل على أن المراد من قوله تعالى :{ بنعمة ربك } : النبوة والرسالة ، فقد ذكر ذلك سبحانه في القرآن الكريم ، وبين أن النبوة والرسالة هي أعظم النعم الإلهية ، فقال سبحانه :{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } ثم قال جل وعلا :{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا } ثم قال تعالى :{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا * أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا }... الآية

فلقد ذكر سبحانه فضلهم بالنبوة والرسالة ، ثم بين جلّ وعلا أن هذا هو الفضل والنعمة الكبرى ، وقال تعالى :{ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ } أي : وهم أهل النعمة الكبرى {وَالصِّدِّيقِينَ }وهم دون الأنبياء بالفضل { وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ }الآية

فالنبوة نعمة من الله تعالى كبرى ، وفضل من الله تعالى كبير ، ولاشك أن مقام النبوة مقام كبير عظيم له شأنه واعتباره ، ومع ذلك فقد قال سبحانه :

{ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ } فهناك تفاضل بين الأنبياء ، وهناك تفاضل بين الرسل كما قال جل وعلا :

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ }

وإن أفضل الأنبياء والمرسلين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جمع الله له جميع النبوات والرسالات قبله ، وزاده عليهم بالنبوة المحمدية الخاصة به صلى الله عليه وسلم ،وكذلك الرسالة العامة الجامعة .

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم هو فاتح النبوة ، وهو خاتم النبيين ، ، ولقد أعطاه الله تعالى النبوة قبل جميع الأنبياء ، وذلك في عالم الأرواح قبل عالم الأشباح ـ أي : الأجساد ـ ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الذي رواه الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قالوا : يا رسول الله متى وجبت لك النبوة ـ أي ثبتت ـ ؟

قال صلى الله عليه وسلم :[ وآدم بين الروح والجسد ] [٩٢]

وفي رواية الإمام أحمد عن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال :

قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟

قال : وآدم بين الروح والجسد ] [٩٣]

وفي رواية : قيل : يا رسول الله متى استُنبئت ؟

قال صلى الله عليه وسلم :[ وآدم بين الروح والجسد ] [٩٤]

وفي رواية أن رجلاً قال : يا رسول الله متى جُعلت نبياً ؟

قال صلى الله عليه وسلم : [ وآدم بين الروح والجسد ] [٩٥]

ـ أي لم يكتمل خلق آدم عليه السلام بعد .

---

[٩٢] سنن الترمذي كتاب المناقب

[٩٣] المسند ١٩٦٨٦

[٩٤] رواه ابن سعد في الطبقات من رواية جابر الجعفي عن الشعبي

[٩٥] انظر المسند ١٦٠٢٨

ومن هذا يتبين لك أن الله تعالى خلق روح النبي صلى الله عليه وسلم قبل الأرواح ، ونبّأه في ذلك العالم ، كما أنه سبحانه خلق النور المحمدي قبل الأشياء كلها ، وفي الحديث :

[ كنت أول النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث ] [٩٦]

أي : أنه صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء خلقاً في عالم الأرواح ، وآخرهم في البعث في عالم الدنيا الشهودي وقد ختمت له النبوات وختمت به صلى الله عليه وسلم فقال :[ فلا رسول بعدي ولا نبي ] [٩٧]

فإذا علمت أن النبوة هي من أعظم النعم الإلهية على الأنبياء ، وأن النبوة على مراتب ، وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو صاحب النبوة الجامعة الفاتحة والخاتمة ، فماذا تفهم من معنى النبوة ؟

نعم إن حقيقة النبوة وذوق النبوة أمر لا يعلمه إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ولكن يمكنك التعرف على بعض خصائص النبوة ، فقد خصّ الله تعالى الأنبياء بخصائص وصفات في ذواتهم ومداركهم وأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وعلومهم وانكشاف المغيَّبات لهم ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن جملة خصائص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم : أن الله تعالى جعلهم موضع عنايته الخاصة منذ صغرهم ، بل وقبل ذلك عندما كانوا ينتقلون في الأصلاب والأرحام ، وفي هذا يقول تعالى :{ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } أي : أن هناك تدبيرات إلهية سابقة على الوجود يدبِّر فيها سبحانه أمر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن ذلك ما قال سبحانه في موسى عليه السلام :{ ولتُصنع على عيني } أي : على عناية خاصة مني يا موسى ، فأنت على مرأى مني ، وأنت موضع نظري

[٩٦] قال في المقاصد : رواه أبو نعيم في الدلائل وابن أبي حاتم في تفسيره وابن لال وقال السيوطي في الدر المنثور : أخرجه الحسن بن سفيان وابن مردويه والديلمي وابن عساكر
[٩٧] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الرؤيا والمسند ١٣٣٢٢

وعنايتي ، وقال تعالى في عنايته بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا }

أي : أنت يا محمد بعين العناية الإلهية في جميع أمورك وشؤوناتك ، وأنت على مرأى ومشهد خاص ، كما قال سبحانه : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ } فقوله تعالى : { الذي يراك } يعني أنه صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى وعنايته { حين تقوم } أي : حين تقوم إلى الصلاة ، وحين تقوم للتهجد ، وحين تقوم من مجالسك كلها ، فأنت في جميع تحركاتك وتقلباتك على مرأى منا يا رسول الله ، ومن هذا قوله جل وعلا : { ألم يجدك يتيماً فآوى } أي : أنت موضع نظر الله يا رسول الله ، فقد وجدك يتيماً فآواك إليه ، وإن في قوله جل وعلا :

{ ألم يجدك } معاني كبيرة تدل على فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعناية الله تعالى به .

ومن جملة خصائص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام : أن الله تعالى خصّهم بخصائص في مداركهم ، فهم يسمعون ما لا يسمع غيرهم ، ويرون ما لا يرى غيرهم ، وتنكشف لهم أمور لا تنكشف لغيرهم ، فمن ذلك أنهم عليهم السلام يرون ملكوت الأشياء كما يرون المحسوسات على حد سواء ، قال الله تعالى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } ولكي تفهم معنى الملكوت لابد أن تعلم أن هناك عالم ملك وعالم ملكوت ، أما عالم الملك فهو العالم الشهودي المحسوس ، وأما عالم الملكوت فهو ما وراء المشهود ، ومنه عالم الأرواح وعالم الملائكة ، وعلى هذا فإن جسم الإنسان من عالم الملك ، وروحه من عالم الملكوت ، واعلم أنه لا قوام للعالم الشهودي المُلكي إلا بالملكوت ، كما أن الجسم بلا روح لا حياة فيه ولا قوة له ، فما قام عالم الملك إلا بالملكوت ، وكلاهما بيد الله سبحانه الذي هو قيّوم كل شيء ، وفي هذا يقول سبحانه : { تبارك الذي بيده الملك } وقال جل وعلا : { فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء } ومن هذا تعلم أن الملكوت هو السر الرباني الذي به قوام الأشياء ، وهذا الملكوت إنما مدده من حضرة القيوم جل وعلا الذي قامت به جميع الأشياء ، فالإنسان إنما يرى عالم الملك ، كما لو نظر إليك إنسان فلا يرى منك إلا جسمك

ولكنه لا يرى الملكوت الذي قام به جسمك ، وأنت ترى الحجر صلباً قاسياً ، وما ذلك إلا بالملكوت القائم فيه ، ولو سلب سبحانه السر الملكوتي في الحجر لصار هباء منثوراً ، وفي هذا يقول سبحانه في الجبال عندما يريد تخريبها يوم القيامة : { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا } فقد رأى إبراهيم عليه السلام ملك الأشياء وملكوتها ، وأطلعه الله تعالى على ذلك ، وفي هذا قال عطاء ومجاهد وغيرهما في قوله تعالى :

{ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }

قالوا : فُرِجت له السموات فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن[٩٨] .

وقال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل على معصية من معاصي الله فدعا عليه فهلك ، ثم أشرف على آخر على معصية من معاصي الله فدعا عليه فهلك ، ثم أشرف على آخر فذهب يدعو عليه ، فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدْعُ على عبادي ، فإنهم مني على ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، وإما أن أُخرِج

---

[٩٨] انظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة وقال السيوطي في الدر المنثور :
أخرج آدم بن أبي اياس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله تعالى : { وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض } قال : فرجت له السموات السبع ، فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن .

من صلبه نسمة تملأ الأرض بالتسبيح - أي : ولو كان من أحفاد الأحفاد - ، وإما أن أقبضه إليّ فإن شئت عفوت وإن شئت عاقبت [٩٩]

فقوله تعالى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } أي : ليشهد المَشاهد ويأتي بالأدلة والحجج على قومه وليكون من الموقنين الذين يزدادون يقيناً فوق يقين .

أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأى ما هو أعظم من ذلك فقد أطلعه الله تعالى على ملكوت العالم العلوي والعالم الأرضي في مناسبات متعددة ، ومن ذلك ما رواه الترمذي وأحمد أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ إني قمت من الليل فصلّيت ما قُدِّر لي فنعست في صلاتي فاستثقلت - أي وجدت ثقلاً ، وهذه حالة من حالات الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة فقال :

يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

قلت : لا أدري يا رب

قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

قلت : لا أدري رب - ثم تجلى عليه رب العزة وأفاض عليه العلوم والمعارف وكشف له عن المغيبات كلها –

فقال صلى الله عليه وسلم : فتجلى لي كل شيء وعرفت

- أي ظهر لي كل شيء عياناً وعرفت ، فنال صلى الله عليه وسلم العلوم عن طريق الشهود وعن طريق المعرفة -

فقال سبحانه : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

---

[٩٩] وقال السيوطي : وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله وعليه وسلم ....
فذكر رواية ثانية الحديث وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن سلمان الفارسي رضي الله عنه

قلت : في الكفارات ، قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجمعات - وفي رواية عند الترمذي : مشي الأقدام إلى الجماعات - وجلوس في المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات

قال : وما الدرجات ؟- أي : الأعمال التي ترفع صاحبها في مراتب القرب من الله تعالى

- وفي رواية قال سبحانه : ثم فيم ؟

قلت : إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام

وفي رواية : وإفشاء السلام [١٠٠]

قال جل وعلا : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون - أي : أن ينقضي عمري وأنا سالم من الفتن - وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك ] [١٠١]

ونسأل الله تعالى ذلك من فضله كما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما أنه صلى الله عليه وسلم رأى ملكوت العوالم وعاينها ليلة الإسراء والمعراج حتى قال صلى الله عليه وسلم :

[ حتى ظهرت لمستوى - أي خصّصت أنا بذلك - أسمع فيه صريف الأقلام ] [١٠٢]

ومن هذا يتبين لك أن الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ميّزهم الله بالخصائص السمعية والبصرية والإدراكية ، فيسمعون ما لا يسمع غيرهم ، ويرون ما لا يرى غيرهم ، ويشهدون ما لا يشهد غيرهم ، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول :

[ إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ]

---

[١٠٠] المسند ٣٣٠٤

[١٠١] المسند ٢١٠٩٣ وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[١٠٢] تقدم تخريجه

أي : أنكم ترون ظواهر الأشياء ، أما أنا فأرى ظواهرها وملكوتها ، وأرى ظاهرها وباطنها وسرها .

ومن جملة ما كان يسمع صلى الله عليه وسلم ما جاء في الحديث :

[ أطّت السماء وحق لها أن تئطّ - أي : ظهر لها صوت من كثرة الملائكة فيها - ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى ] ولا تقس أجسام الملائكة على أجسام البشر ، بل هم من العالم اللطيف النوراني ، والعالم اللطيف لا يشغل حيزاً أو جرماً ، والإنسان هو : روح قائم بجسم كثيف طيني ، أما الملك فهو روح قائم بجسم لطيف نوراني ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : [ والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذّذتم بالنساء على الفرش ][١٠٣] أي : لو علمت شيئاً مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تحملته ، ولتغير الحال معك لعدم استعدادك واتساعك لذلك ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت لذلك لقوة استعداده وقابليته صلى الله عليه وسلم .

وجاء في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم صعد يوماً المنبر فقال : [ إني والله لأنظر إلى حوضي الآن ] - فكشف الله له عن حوضه في عالم الموقف وهو على منبره في المدينة صلى الله عليه وسلم -

[ وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف أن تنافسوا فيها ] [١٠٤]

وفي رواية :[ وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم ] [١٠٥]

وفي هذا تحذير للمؤمن أن لا يجعل الدنيا وأموالها أكبر همّه ، بل عليه أن يجعل الآخرة نصب عينيه ، لأن الآخرة هي المستقبل المحتم الوقوع ، أما مستقبل الدنيا فهو محتمل الوقوع ، وإن وقع فهو متاع قليل لا ينبغي الاهتمام به بالتزاحم والتنافس على الدنيا .

---

[١٠٣] سنن الترمذّي كتاب الزهد وسنن ابن ماجه كتاب الزهد والمسند ٢٠٥٣٩
[١٠٤] صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الفضائل
[١٠٥] صحيح مسلم كتاب الفضائل

وتفكر في قوله تعالى :{ وتزودوا } أي : تزودوا لدنياكم ما تحتاجون ، ثم نبّه سبحانه إلى الزاد الأهم فقال سبحانه :{ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } .

كما أن من خصائص الأنبياء : أن الله تعالى أعطاهم القلب اليقظ الذي لا ينام - أي لا يغفل - عن الله تعالى أبداً ، كما ورد في الحديث :

[ إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا ] [١٠٦]

ولذلك فإنهم يوحى إليهم وإن كانوا في نومهم ، وإن نوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا ينقض الوضوء كنوم غيرهم ، وقد رقد صلى الله عليه وسلم قبل أن يوتر ، ثم قام فأوتر ، فقالت له السيدة عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : [ يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي ][١٠٧]
وقال الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث :

[ وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان ] [١٠٨]

ومعنى أنه : لا يغسله الماء ، أي : وإن ذهب من السطور والصحف فإنه محفوظ في الصدور كما قال تعالى في الحديث القدسي :

[ وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ][١٠٩]

وقال جل وعلا :{ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ }

ولو أفرغت ماء الدنيا على صدر الحافظ لكتاب الله تعالى لمَا زال القرآن الكريم من صدره .

وقوله سبحانه في الحديث القدسي : [ تقرؤه نائماً ويقظان ]

أي : أن هذا أمر خاص بك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

١٠٦ عزاه في كنز العمال لابن سعد عن عطاء مرسلاً
١٠٧ صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
١٠٨ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
١٠٩ قال السيوطي في الدر المنثور وابن كثير في تفسيره : أخرجه أبو نعيم في الدلائل

ومن هنا تفهم قوة يقظة قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم إذ كان يقرأ القرآن الكريم نائماً كما يقرؤه يقظان صلى الله عليه وسلم ، وجاء في الحديث عن ربيعة الجرشي قال : أتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : لتنم عينك ولتسمع أذنك وليعقل قلبك - أي : لأن قلبك لا ينام - قال صلى الله عليه وسلم :[ فنامت عيناي وسمعت أذناي وعقل قلبي قال : فقيل لي : سيدٌ بنى داراً فصنع مأدبة وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يطعم من المأدبة وسخط عليه السيد ، قال :- أي الملك مفسّراً ما قاله - : فالله السيد - أي : بالسؤدد المطلق - ومحمد صلى الله عليه وسلم الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة ][110]

وهذا قوله تعالى مخبراً عن دعاء المؤمنين :

{ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم { أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا } الآية .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

[110] سنن الدارمي في المقدمة وأصله في صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

## المحاضرة السابعة

### حول بيان سعة علومه صلى الله عليه وسلم واطّلاعه على المغيبات

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

قال سبحانه : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ }

أما المراد ب{ ن } فهو مدد الله الفياض على القلم الأول الذي أمره سبحانه أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأفاض عليه سبحانه علمَ ذلك فكتب ذلك .

قوله تعالى : { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } وذلك لأن المشركين لما سمعوا القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعوا أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم ورأوا معجزاته قالوا عنه : مجنون ، فردّ الله تعالى عليهم ونفى قولهم وبين أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو أعقل العقلاء وأحكم الحكماء وأفطن الفطناء وأعلم العلماء .

ومعنى الآية : { مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } أي : ما أنت يا رسول الله بسبب نعمة الله تعالى عليك بالنبوة والرسالة والعلوم والمعارف وبتعليمك ما لم تكن تعلم وإطلاعك على العوالم كلها وإخبارتك الغيبية ، ما أنت بهذا الفضل والنعمة بمجنون ، بل إن من اجتمعت فيه هذه العلوم وهذه النبوة الجامعة والرسالة العامة لابد أن يكون أعقل خلق الله تعالى وأذكاهم وأفطنهم ، ولا يقول عنه : مجنون إلا من كان مجنوناً معانداً .

أما وجه المناسبة بين القسم والمقسَم عليه : فهو أنه سبحانه الذي أفاض العلوم على القلم لما قال له : اكتب ، هو الذي أفاض على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الإفاضات وعلّم رسوله وإن كان أمّياً ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة وعلّمه وأخبره بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأمره أن يخبر عما هو كائن إلى يوم القيامة ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم هو أعظم من أطلعه الله من الرسل على المغيبات، وهو أعظم من نال العلوم والمعارف الإلهية بتعليم وفيض من الله تعالى ، وإذا أردت أن تحصي أجناس وأنواع العلوم التي نالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لَمَا أمكنك ذلك ، فمن باب أولى أنت عاجز عن استقصاء أفراد العلوم التي أفاضها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول سبحانه { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا }

فمن جملة علومه صلى الله عليه وسلم : اطّلاعه على كثير من المغيّبات السماوية والأرضية والعرشية والماضية والآتية والحاليّة والظاهرة والخفية ، وقد أطلعه الله تعالى على ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

[ قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ]

- فحدّثهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بدء الخلق ، واستمر معهم إلى زمنهم ثم إلى يوم القيامة ومواقفها إلى أن دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار –

قال سيدنا عمر رضي الله عنه : [ حفظ ذلك مَن حفظه ونسيه مَن نسيه ] [١١١]
وروى مسلم في صحيحه عن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال :

صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس

قال : فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا ] [١١٢]

---

[١١١] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق
[١١٢] صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة

ومن جملة ذلك : أن الله تعالى أشهد سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عالم الدنيا كله ببرّه وبحره وجباله وشجره ، كما في الحديث عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ إن الله تعالى رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفي هذه ] [١١٣]

وعن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[ إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها ] [١١٤]

وقد رأى صلى الله عليه وسلم الأمم السابقة ، ورأى أمته اللاحقة التي ستأتي من بعده ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [ عُرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد - أي : أن هناك أنبياء ورسلاً ، وهناك أنبياء فقط ، وكل منهم كان أتباعه على حسب ما قُدِّر له - إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم ، وفي رواية : فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق[١١٥] - أي : كل الجهات - فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله تعالى ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يَرْقون ولا يسْترْقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال :

---

[١١٣] عزاه في كنز العمال للطبراني وأبي نعيم في الحلية
[١١٤] صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة
[١١٥] صحيح البخاري كتاب الطب

أنت منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة ] [116]

وقد رأى صلى الله عليه وسلم أمته في عدة مناسبات ، ورآهم مرة تفصيلاً ، ففي الحديث : [ عُرضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة - أي : أمام حجرته صلى الله عليه وسلم - حتى لأنا أعرَف بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه ، صُوّروا لي في الطين ] [117]

فرأى صلى الله عليه وسلم أمّته أفراداً أفراداً ، وصار يعرف الواحد منهم أشد من معرفة الإنسان لصاحبه ، وهذه معرفة تفصيلية بكل فرد ، فقد رآني ورآك صلى الله عليه وسلم ، ولنا الخير والبشر والسعادة في نظره لنا صلى الله عليه وسلم ، وإن لذلك حكماً وأسراراً كبرى من جملتها :

أنه صلى الله عليه وسلم الرسول العام لجميع الأنام إلى أبد الآبدين ، فحقّ له أن يُطلعه الله تعالى في عالم الدنيا على أمته إجمالاً وتفصيلاً ، فجاءت شريعته صلى الله عليه وسلم عن علم ودراية بهذه الأمة ، فيضع الدواء حيث الداء ، ويشرع الأحكام المناسبة لمن بعده ، ويكون شرعه شرع من عاين الأمور على وجه فيه سعادة من بعده إلى يوم القيامة .

ومن جملة ما أطلع الله عليه رسوله صلى الله عليه وسلم من المغيبات : نعيم القبر وعذابه، وأخبر عن ذلك صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض القبور ، وقد مات أصحابها في الشرك وسمِع عذابهم ، قال صلى الله عليه وسلم :

[ فلولا أن لا تَدافنوا لدعوت الله تعالى أن يسمعكم من عذاب القبرالذي أسمع منه ] [118]

---

[116] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[117] عزاه في كنز العمال للطبراني والضياء في المختارة ورواه أبو نعيم في معرفة الصحابة وابن الأعرابي في معجمه
[118] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

وقد يُطلع الله تعالى بعض أوليائه على عذاب أهل القبور أو نعيمهم ، فعن داود الطائي رضي الله عنه أنه مر على رجل يُعذَّب في قبره ، فسمعه يقول : ألم أصلّ ألم أزكّ ألم أحجّ ؟

فأجيب : بلى يا عدو الله ، ولكنك إذا خلوت بارزت الله بالمعاصي ولم تراقبه ] [١١٩] - يعني أنه كان منافقاً - .

وقد أطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على أحوال عالم الحشر والموقف والصراط والجنة والنار وجميع ما هنالك من عوالم ، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن ذلك في كثير من المناسبات ، كما أنه سبحانه أطلع رسوله على المغيَّبات النفسية ، فكان كثيراً ما يتكلم عما يقع في نفس الرجل قبل أن يظهره ذاك الرجل ، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أمور غيبية ستقع ، فأخبر عنها قبل وقوعها ، فمن جملة ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم أشرف يوم بدر على أرض القتال وقال قبل أن تحتدم المعركة :

[ هذا مصرع فلان غداً ، ووضع يده على الأرض ، وهذا مصرع فلان غداً ووضع يده على الأرض]

قال أنس رضي الله عنه : والذي نفسي بيده ما جاوز أحد منهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٢٠] .

وفي الحديث قال جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه :

لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي ثم لبست حُلّتي ثم دخلت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فرماني الناس بالحدق فقلت لجليسي : يا عبد الله ذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

---

١١٩ انظر تفسير النيسابوري لقوله تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } وقد ذكره الملا علي القاري في المرقاة شرح المشكاة

١٢٠ صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير وسنن أبي داود كتاب الجهاد واللفظ له

قال : نعم ، ذكرك آنفاً بأحسن ذكر ، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته - أي : عرض له أمر فتحدث عنه ، وقال : [ يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن ألا إن على وجهه مسحة ملك ]

قال جرير : فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني [١٢١] - أي : أعطاني -

ولقد كان جرير رضي الله عنه ذا فهم وشأن كبير في قومه ، وكان عليه مسحة من الجمال والنور الإيماني .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : دخل جرير بن عبد الله رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أصحابه ، وضنّ كل رجل بمجلسه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه - لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكرم كِرام القوم - فتلقّاه - أي جرير - بنحره ووجهه فقبله ووضعه على عينيه وقال : أكرمك الله كما أكرمتني ، ثم وضعه على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا أتاه كريم قوم فليكرمه ] [١٢٢] .

وجاء في الحديث : [ بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث أصحابه إذ قال : يطلع عليكم من هذا الفج ركب من خير أهل المشرق ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتوجّه في ذلك الوجه - أي : نحو الباب الذي عيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - فرأى ثلاثة عشر راكباً فرحّب وقرب وقال : مَن القوم ؟ قالوا : قوم من عند عبد القيس قال : فما أَقدمكم لهذه البلاد ؟ ألتجارة ؟ قالوا : لا ، قال : فتبيعون سيوفكم هذه ؟ قالوا : لا ، قال : فلعلكم إنما قدمتم في طلب هذا الرجل ؟ قالوا : أجل ، فمشى معهم يحدّثهم حتى نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا صاحبكم الذي تطلبون ، فرمى القوم بأنفسهم عن رواحلهم ، فمنهم من سعى سعياً ، ومنهم من هرول هرولة ، ومنهم من مشى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا بيده يقبّلونها ، وقعدوا إليه وبقي الأشجّ وهو أصغر القوم ،

---

[١٢١] المسند ١٨٣٨٥ والفج هو : الطريق الواسع

[١٢٢] رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان

فأناخ الإبل وعقلها وجمع متاع القوم ثم أقبل يمشي على تؤدة حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فقبّلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله ، قال : وما هما يا رسول الله ؟ قال : الأناة والتّؤدة ، قال : أجبلاً جُبلت عليه أم تخلّقاً مني ؟

قال : بل جُبلت عليه ، قال : الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله ][١٢٣] .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :[ يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته - أي : تقطر ماء - من وضوئه ، قد تعلّق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبِعه عبد الله بن عمرو بن العاص - وكان من العُبّاد - فقال : إني لاحَيْت أبي - أي خاصمته - فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم - وذلك حتى يطّلع على عباداته - قال أنس : وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارّ - أي استيقظ من نومه - وتقلّب على فراشه ذَكَرَ الله عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر ، - وفي رواية البيهقي : حتى إذا كان في وجه السحر قام فتوضأ ثم دخل المسجد فصلّى ثنتي عشرة ركعة باثنتي عشرة سورة من المفصّل ليس من طواله ولا من قصاره ، يدعو في كل ركعتين بعد التشهد بثلاث دعوات يقول :

[ اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، اللهم اكفنا ما أهمنا من أمر آخرتنا ودنيانا ، اللهم إنا نسألك من الخير كله ، وأعوذ بك

١٢٣ قال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب : "أخرجه البيهقي" وأبو يعلى، والطبراني بسند جيد وأخرجه البخاري في الأدب المفرد" مطوّلًا من وجه آخر

من الشر كله[١٢٤]] ـ ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ،ـ أي أنه رأى عمله قليلاً ـ قلت : يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثَمّ ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرار : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، قال : فلما ولّيت ـ أي : وفي نفسه شيء لأنه يريد أن يعرف حقيقة عباداته ـ دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك ، وهي التي لا نطيق ][١٢٥] ، وإنما قالها عبد الله بن عمرو بن العاص تواضعاً منه رضي الله عنه ليبين أن التحقق بهذا يحتاج إلى صبر ومجاهدة نفس ، وذلك لأن طهارة القلب وسلامة النفس من صفات أهل الجنة ، بل هي من صفات أولياء الله تعالى الأكابر رضي الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك أيضاً : أنه صلى الله عليه وسلم كان يخبر عن الضمائر النفسية إذا كانت الحكمة تقتضي إظهار هذا الأمر المخفي ، فعن عبد الله بن أبي بكر قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أبي سفيان وهو في المسجد ، فلما نظر إليه أبو سفيان قال في نفسه : ليت شعري بأي شيء غلبتني ؟ ـ وكان قد أسلم على حداثة عهد ـ فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم حتى ضرب بيده بين كتفيه وقال :[ بالله غلبتك يا أبا سفيان ]

فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله[١٢٦] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : رأى أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي والناس يمشون خلفه ، فقال بينه وبين نفسه :
لو عاودت هذا الرجل القتال ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب بيده في صدره فقال : [ إذن يخزيك الله ]

---

[١٢٤] شعب الإيمان للبيهقي
[١٢٥] المسند ١٢٢٣٦
[١٢٦] انظر الروض الأنف للسهيلي

قال : أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوهت به [١٢٧]

ومن ذلك أيضاً لما قتل يوم بدر سبعون من صناديد المشركين واشتد عليهم الأمر جلس عمير وصفوان بن أمية بن خلف ، فقال صفوان : قبّح الله العيش بعد قتلى بدر ، قال عمير : أجل ، ولولا دين عليّ لا أجد قضاءه ، وعيال لا أدَع لهم شيئاً لخرجت إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه ، فإن لي عنده علة أعتلّ بها ، أقول : قدمت على ابني هذا الأسير ، ففرح صفوان وقال : عليّ دينك ، وعيالك أسوة عيالي في النفقة ، فجهزه صفوان وأمر بسيف فسُمّ وصُقل ، فأقبل عمير حتى قدم المدينة فنزل بباب المسجد - وكان عمير يومئذ مشركاً - فنظر إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في نفر من الأنصار يتحدثون عن وقعة بدر ويذكرون نعم الله تعالى فيها ، فلما رآه عمر معه السيف فزع وقال : هذا عدو لله الذي حزرنا للقوم يوم بدر ، - أي أطلعهم علينا - ثم قام عمر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا عُمير بن وهب قد دخل المسجد متقلداً سيفاً وهو الغادر الفاجر ، يا رسول الله لا تأمنه على شيء ، قال : أدخله علي ، فخرج عمر فأمر أصحابه أن ادخلوا على رسول لله صلى الله عليه وسلم واحترسوا من عمير ، وأقبل عمر وعمير فدخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع عمير سيف ، فقال : أنعموا صباحاً - وهي : تحيتهم في الجاهلية - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله عن تحيتك ، السلام تحية أهل الجنة فما أقدمك يا عمير ؟ قال : قدمت في أسيري ففادونا في أسيركم فإنكم العشيرة والأهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما بال السيف في رقبتك ؟ فقال عمير : قبّحها الله فهل أغنت عنا في شيء ؟ إنما نسيته حين نزلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اصدقني ما أقدمك ؟ قال : قدمت في أسيري ، قال : فما الذي شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ؟ ففزع عمير فقال : ما شرطت له شيئاً ، قال : تحمّلت له بقتلي على أن يعول بَنِيك - أي أولادك - ، ويقضي دينك ، والله حائل بيني وبينك ، قال عمير : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، يا رسول الله كنا نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث كان بيني وبين

---

[١٢٧] انظر دلائل النبوة للبيهقي والإصابة وسبل الهدى والرشاد .

صفوان في الحجر ، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق ، وقد آمنت بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ففرح المسلمون حين هداه الله ][١٢٨]

ومن جملة اطلاعاته صلى الله عليه وسلم على الضمائر النفسية :

ما جاء في الحديث أن فضالة بن عمير بن الملوح [١٢٩]الليثي أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَفضالة - والهمزة هنا للنداء أو للاستفهام -

قال فضالة : نعم يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : اِستغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع صلى الله عليه وسلم يده عن صدري ، حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه ][١٣٠]

وتأمل في مسحات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لها آثارها الكبيرة في الخير والبركة والنور والإيمان .

وما مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر أحد إلا نال الغاية والسعادة ، ومن ذلك ما ورد في الحديث عن أبي محذورة رضي الله عنه قال : خرجت في نفر فكنا ببعض طريق حنين ، فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق فأذّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله صلى الله عليه

---

[١٢٨]انظر المعجم الكبير للطبراني وقد عزاه في كنز العمال لإ سحاق وابن جرير وانظر أسد الغابة ٢/ ٣٧٦

[١٢٩] بضم الميم وفتح اللام والواو المشددة، ثم حاء مهملة -

[١٣٠] انظر سبل الهدى والرشاد وسيرة ابن هشام والروض الأنف وقال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب : رواه ابن هشام عن بعض أهل العلم وذكره ابن عبد البر في كتاب الدرر في السير له بهذه القصة ولم يذكره في الاستيعاب وهو على شرطه وذكر عياض في الشفاء بنحوه كما في الإصابة ونقله عنه كذلك اليعمري، والشامي في نسخة صحيحة

وسلم فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكّبون - أي : معرضون - فصرخنا نحكيه ونستهزئ به ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّكم الذي سمعت صوته قد ارتفع ؟ فأشار القوم كلهم إليّ وصدقوا ، فأرسل كلّهم وحبسني فقال : قم فأذّن بالصلاة ، فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرني به ، فقمت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألقى إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو نفسه فقال : قل : الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قال لي : ارجع فامدد من صوتك ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ، ثم وضع يده على ناصية [١٣١] أبي محذورة ثم أمارّها على وجهه مرتين ثم مرتين ثم على يديه ثم على كبده ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيك ، فقلت : يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة ، فقال : قد أمرتك به ، وذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهية ، وعاد ذلك محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ] [١٣٢]

ونسأل الله تعالى أن يفيض علينا من أسرار وأنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يرزقنا من مسحاته ونفحاته آمين .

وأدعو الله العظيم بجاه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يرفع مقام والدي وسيدي وشيخي العالم العارف المحدث المفسر عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى في أعلى مراتب المقربين وأن يجزيه عني خير الجزاء وأن يغدق عليه كريم العطاء وعلينا وعلى إخواننا وأحبابنا والمسلمين

---

[١٣١] الناصية : مقدمة الشعر والجبهة من الرأس

[١٣٢] المسند ١٤٨٣٦ وسنن ابن ماجه كتاب الأذان والسنة فيه .

أجمعين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

## فهرس الكتاب